فريق
متميزون

E-BOOK

آرثر كونان دويل

الأثير السام

THE POISON BELT

ترجمة: شيماء بدير

الطبعة الأولى

بوك لاند للنشر والتوزيع
BOOKLAND

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الأثير السام
THE POISON BELT

رواية مترجمة..

الكاتب: آرثر كونان دويل.
ترجمة: شيماء بدير

"الخطوط الوهمية"

في اللحظة الآنيّة، موقنٌ أنَّ واجبي واضح! تلك الأحداث المذهلة، التي ماتزال واضحة في ذهني، عليَّ أن أسرد تفاصيلها بدقة، قبل أن تطمسها أفعال الدهر إن تأخَّرت.

ولكن، بينما أكتبُ، أجدُ نفسي يملؤني الشعور بمعجزة وجود رفقتِنا الصغيرة "العالم المفقود"(البروفيسور تشالنجر، البروفيسور سمرلي، واللورد "جون روكستون"، وأنا)؛ لأنَّنا نمرُّ معاً بتينكَ التجربة المذهلة.

عندما أُبلغتُ في صحيفة "ديلي جازيت"، قبل بضعِ سنوات، بأنّي سأكتبُ عن رحلتنا المثيرة إلى أمريكا الجنوبية، لم أظنّ أنَّه سيتوجب عليّ أن أحمل عبء رواية تجربة شخصية (ربما الأكثر غرابة وفرادة من نوعها، كي تحدثَ مع أي واحدٍ من بني الإنسان) ستُذكر في سجلات التاريخ باعتبارها جبل شاهق تحدُّه التلال الواطئة من كل صوب.

كان الحدث نفسهُ يُبهر الأنفاس، إلا أنَّ الظروف التي أحاطت بنا معًا في تلك الحلقة الاستثنائية، أتت بصورة طبيعية وأكثر حتمية في الواقع.

سأتحدّث عن تلك الأحداث في أقرب وقت ممكن وبوضوح قدرِ الإمكان، مع الأخذ في الاعتبار أنَّ الفضول العامّ، الذي كان ومايزال نهماً لا يشبع، يتطلّب أن أقدم للقارئ أقصى قدر من التفاصيل حول هذا الموضوع.

يوم الجمعة ٢٧ أغسطس - تاريخ لن يُنسى إلى الأبد في تاريخ عالمنا - ذهبتُ إلى جريدتي، وسألتُ السيد مكاردل، الذي مايزالُ محررنا، أن يمنحني إجازة لمدة ثلاثة أيام.

أومَأ العجوز الإسكتلندي برأسه، وفركَ جبهته المغضنة بالزغب الرمادي، وفي النهاية أفصحَ عن تردده ببضع كلمات:

اعتقدتُ، سيد مالون، أنَّه يمكن أن نشغلكَ في هذه الأيام بسبقٍ ما... قلتُ لنفسي: إنَّ هناك قصة معينة، وحدكَ وباختصار مَن سيتمكن من سبر غورها وفهمها.

"أوه! آسف"، أجبتُ محاولاً إخفاء احباطي. بالطبع، بما أنكَ في حاجة لي، لم يعد طلبي وارداً. لكن كان لديَّ موعد هامّ وخاص جداً، فإذا كان بالإمكان الاستغناء عنّي..

-" لا يمكنني التفكير حتى في الاستغناء عنك".

كان الأمر مريرًا، لكنّي اضطررتُ أن أتجرَّعه بأفضل تعبير ممكن بعد كل شيء، كان خطئي. منذ متى وللصحفي أيّة فرصة ليخطط لمشاريع خاصة لنفسه؟.

بقدر ضئيل من المرح المفتعل، قلتُ له:" دعنا نتوقف عن الحديث عنهُ! ماذا تريدٍ منّي؟
"حسناً، مجرد مقابلة مع ذلك الشيطان في "روثرفيلد".
"مَن؟ البروفيسور تشالنجر؟"، صحتُ
"مهلاً! نعم بالطبع! لقد طردَ الشاب "أليك سبمسون"، من صحيفة الكوريير"، وجعلهُ يجتاز ميلاً راكضاً على الطريق السريع، في الأسبوع الماضي، ممسكاً بياقة معطفهِ في يد واحدة، وبنطالهُ ساقطٌ عن مؤخرته.. ألم تقرأ عن الأمر؟. أليس كذلك، في تقارير الشرطة؟. يفضّل رفاقكَ الذهاب لمقابلة تمساح في البرية ولا يقابلونهُ! فرأيتُ أن تجرّب حظك، فأنتَ صديق قديم له.
"لماذا؟" قلتُ، ويملؤني الشعور بالراحة. إذن هذا يجعل الأمر أسهل. في الواقع، كانت أجازتي لأجل زيارة البروفيسور "تشالنجر" في "روثرفيلد". سنحتفل بذكرى مغامرتنا قبل ثلاث سنوات على الهضاب، ولقد دعا فريقنا إلى منزله في "روثرفيلد" لنحتفلَ بهذه المناسبة.
-عظيم! زأرَ مكاردل فاركاً يديه، ورمقني بنظرة باسمة من وراء نظارته. "ممتاز! في تلك الحالة ستتمكن من سبر أعماق "آرائهِ".
بالنسبة لأيّ رجل آخر، يمكنني قول أنَّ حديثه محض هراء، لكن بالنسبة لهذا الرجل، فقد تطوَّر الأمر مرة، فمَن يدري أنه قد يكررهُ مجدداً؟".
-عفواً! سبر أعماقه؟ عمَّ تتحدث؟
-ألم تقرأ رسالتهُ حول "الاحتمالات العلمية" في "التايمز" اليوم؟
-لا.
انخفضَ "مكاردل" إلى الأرض حيث التقطَ الصحيفة المعنية. "اقرأ بصوت عالٍ". أمرني مشيراً إلى الزاوية بإصبعه. "سأسعدُ لسماع ذلك مرة أخرى، لأنّي لستُ متأكدًا تمامًا إذا كنتُ قد أدركتُ ما يفكّر فيه ذلك الرجل، من القراءة الأولى أم لا؟
وكانت الرسالة التي قرأتُها، على الفور، لرئيس تحرير الجريدة، كما يلي:

الاحتمالات العلمية
"سيدي، لقد قرأتُ باستمتاع، لم يكن خالياً من المشاعر الأقل إرضاءً، الرسالة المتعجرفة والمثيرة للسخرية- بصراحة- من "جيمس ويلسون ماكفيل"، والتي نُشرتْ مؤخراً على صفحاتكم، وجاءت حول "غموض خطوط فراوينهوفر" في الأطياف. والكواكب والنجوم الثابتة على حدّ سواء.
وفقاً لذلك، فإنَّ القضية مجردة من أهميتها، فبالنسبة لعقلية أكثر تطوراً من عقليّته، قد تكون القضية، على العكس من ذلك، ذات أهمية بالغة-

بالغة لدرجة أنّها ستعرّض للخطر، على سبيل المثال، حياة جميع الرجال والنساء والأطفال على هذا الكوكب.
لا يمكنني أن آمل، باستخدام اللغة العلمية، أنْ أنقل مقصدي إلى جمهور ذكاؤهُ ناقصٌ بما يكفي ليتغذى على مقالات الصحف. لذا، سأحاول ألّا أتجاوزَ نطاقهم المحدود، وأن أستخدمَ لشرح مقصدي تشبيهاً بسيطاً لن يتجاوز القدرات الفكرية لقرائكَ.

- يا رجل! إنّه آس! أعجوبة حيّة! صاحَ "مكاردل"، وهو يهز رأسه مفكراً.
لقد انتزعَ ريشة حمامة تقف على زجاج الشرفة! إنّه رهيب! أثارَ الفوضى في اجتماع "كويكر". لا عجب أنَّ لندن لم تعد قادرة على الدفاع عنه! إنّها مأساة! سيد مالون، بالنسبة لعقل عظيم! حسناً، دعنا نتلمّس ذلك التبسيط.
"سنفترضُ أنّه تمَّ إطلاق حزمة صغيرة من الفلين المترابطة في تيار بطيء؛ لنقلها عبر المحيط الأطلسي. ببطء، يوماً بعد يوم، ستنجرف الحزم وسط ظروف ثابتة محيطة بها.
إذا اعتبرنا أنَّ الفلين ذو إحساس، فقد نتخيل أنّهم سيعتبرون هذه الظروف دائمة وآمنة.
لكنّنا، بمعرفتنا الفائقة، نعلمُ أنَّ الكثير من الأشياء قد تحدث لمباغتة حزمة الفلين، ربما ستطفو على متن سفينة أو حوت نائم، أو تتشابك في الأعشاب البحرية.
على أيَّة حال، ستنتهي رحلتهم بلا شك بإلقائهم بوحشية على صخور "لابرادور". ولكن كيف سيعرفون عن كل هذا، وهم ينجرفون بلطف يوماً بعد يوم فيما يعتقدون أنّه محيط سلس لا حدود له؟
"قد يدركُ قرّاؤكَ أنّ المحيط الأطلسي، في هذه الإشارات الرمزية، يمثل المحيط "الأثيري" القوي الذي تنجرف من خلاله، وأنَّ حزمة الفلين هذه تمثل النظام الكوكبي الصغير والغامض الذي ننتمي إليه.
الشمس في أقلّ مستوياتها، وتجرّ في أذيالها حفنة من التوابع الرثة، ونحن نطفو جميعاً في الظروف اليومية نفسها نحو نهاية غير معروفة. بعض الكوارث بالغة السوء التي ستبتلع وجودنا إلى آخر حدود الفضاء اللامنتاهية، حيث سنسقط بخفة في "نياغرا" من الأثير، أو سنرتطم ب "لابرادور" الرائعة. لا أرى هنا أيَّ مجال للتفاؤل الضحل والجاهل لمراسلكَ، السيد جيمس ويلسون ماكفيل.
على العكس، أرى العديد من الأسباب التي تجعلنا نشاهد ــ باهتمام حذر وعن كثب ــ كل مؤشر على تغيّر تلك البيئة الكونية التي قد يعتمدُ عليها مصيرنا الأسمى..."
"يا رجل، كان ليصبح وزيرًا عظيمًا. " قاطعني "مكارديل" بإعجاب. إنه يدوّي كالأرغن، دعنا نلقي نظرة على ما يزعجه".

يشيرُ الغموض العام والتحول لخطوط "فراينهوفر" من الطيف، في رأيي، إلى تغيير كوني واسع النطاق يتميز بطابعهِ الدقيق والمفرد. الضوء المنبعث من كوكب ما، ما هو إلا الضوء المنعكس عليه من الشمس. أمَّا عن الضوء المنبعث من النجم فهو ضوء مستقل، أصلهُ ذاتي. والآن في هذا المثال، تُظهِر جميع الأطياف، سواء أطياف النجوم أو أطياف الكواكب، خضوعها جميعاً للتغيير نفسهُ.

هل يمكن أن يبدو ذلك نتيجة لتغيير في هذه الكواكب والنجوم؟ تبدو مثل هذه الفرضية غير مقبولة بالنسبة لي: ماهو التعديل الشائع الذي يمكن أن يحدث في آن واحد في الكواكب والنجوم؟ هل سيكون تغييرًا في غلافنا الجوّي؟ هذا ممكن، ولكنهُ بعيد الاحتمال إلى حد كبير؛ لأننا لم نكتشف أيّة أعراض من حولنا، وكذلك التحليلات الكيميائية فشلت في إثبات الأمر.

ما هو إذن الاحتمال الثالث في هذه الظروف؟ أتغييرٌ في البيئة "الموصلة"؟ من هذا الأثير الدقيق للغاية، اللا متناهي الذي يمتدّ من نجم إلى نجم وينتشر في جميع أنحاء الكون. في أعماق هذا المحيط من الأثير، نطفو على تيار بطيء:

هل يُمنعُ الاعتقاد بأنَّ هذا التيار يحملنا نحو مناطق من الأثير الجديد بخصائص لا يمكن تصورها؟ شيء ما حدثَ في مكان ما- هذا الاضطراب الكوني للأطياف- يمكن أن يكون سيئاً. يمكن أن يكون جيدًا. يمكن أن يكون محايداً: ليس جيداً ولا سيئاً. لا نعلم شيئاً.

قد يُعامِل المراقبون السطحيون المسألة على أنّها قضية يمكن ازدراءها، ولكنَّ الرجل الذي مثلي، لديه ذكاء عميق- ذكاء الفيلسوف الحقيقي- سيفهمُ أنَّ احتمالات الكون لا تُحصى، وأنَّ الإنسان الأكثر حكمة هو الذي يستعدّ لغير المتوقع.

لنأخذ مثالاً واضحاً، والذي سيتعهّد بالقول أنَّ تفشي المرض الغامض والشامل، الذي سُجّل في "أعمدتكم" هذا الصباح- على وجه الخصوص- على أنّه اندلعَ بين أعراق أهل "سومطرة" الأصليين، لا علاقة له بالتغيير الكوني؛ الذي قد يستجيبونَ له أسرع من شعوب أوروبا الأكثر تعقيدًا.

أنا أرفضُ فكرة ما يستحق لأؤكّد أنّه، في الوقت الحالي، غير مفيد إنكارهُ، لكن أيضًا من الحماقة ألا نتصور أنَّ الأمر معقد للغاية وكثيف، حيث لا يمكن إدراك أنه ضمن الاحتمالات العلمية.

المخلص لكم:

جورج إدوارد تشالنجر.

"البريارز، روثرفيلد"

"لا بأس، إنَّها رسالة محفزة رائعة". علَّق "مكارديل" متمعّناً، وهو يضع سيجارة في حامل السجائر الزجاجي. " ما رأيكَ في ذلك، سيّد مالون؟"

أجبرتُ على الاعتراف بجهلي التام والمهين بالموضوع محلّ النقاش. ماهي، إذن، خطوط "فراينهوفر"؟

لحسن الحظ، كان "مكاردل" قد درسَ الأمر بمساعدة زميلنا العالِم في المكتب؛ لذلك كان سريعًا في سحب شريطين طيفييّن متعددَّي الألوان من مكتبه، مثل تلك الشرائط التي تراها أحيانًا على قبعات عضو نادي "كريكيت" ناشيء طموح. أشارَ لي أنَّ هناك خطوطاً سوداء معينة شكّلت تقاطعات على سلسلة من الألوان الرائعة من الأحمر إلى الأرجواني، مرورًا بتدرّجات من البرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي.

"هذه الخطوط السوداء هي خطوط "فراينهوفر". أوضحَ لي. الألوان هي الضوء نفسه. أيُّ ضوء إذا استطعتَ كسره عبر منشور، سيعطي الألوان نفسها. لا يعلّموننا أيَّ شيء. ما يهمّ هو الخطوط، لأنّها تختلف حسب ما ينتج الضوء.

لكن هذه الخطوط السوداء، في الأسبوع الماضي، أصبحت غير واضحة، ونشبَ جدال بين علماء الفلك لإعطاء السبب. هذه صورة لتلك الخطوط غير الواضحة، سننشرها في عدد الغد. لم يهتمّ الجمهور بهذه المسألة حتى الآن، لكن أعتقد أنَّ رسالة "تشالنجر" في "التايمز" ستجعلهم ينتبهون.

- ماذا عن قصة سومطرة؟

"حسنًا، إنّها صيحة مُسْهَبة من خط معتم في الأطياف إلى "زنجي" مريض في سومطرة!

لقد أعطتنا الظاهرة بالفعل دليلًا على أنّهُ يعرف ما يتحدث عنه. ليس هناك شك في أنَّ هناك مرضًا غريبًا يظهر هناك. أبلغتنا برقية من "سنغافورة" للتو أنَّ المنارات توقفت عن العمل في مضيق "سوندا"؛ والنتيجة: سفينتان على الساحل ... جيد! على أيَّة حال، من الجيد أن تقابل "تشالنجر". وإذا حصلتَ على شيء بعينه، فلنحجزْ لكَ عمودًا ليوم الإثنين."

عندما غادرتُ مكتب التحرير، ورأسي ممتلئٌ بهذه المهمة الجديدة، سمعتُ اسمي يُنادى في غرفة الانتظار. لقد كان عامل تلغراف صغير السن، أرسلَ من مكان سكني في "ستريثام". جاءتني رسالة من الرجل الذي تحدّثنا عنه للتو وكان نصُّها:

"مالون، ١٧، هيل ستريت

ستريثام.

احضرْ الأوكسجين- تشالنجر".

"احضرْ الأوكسجين! البروفيسور- كما أتذكَّره ــ كان لديه حسّ فكاهي أخرق، فكانت دعاباته يمكن أن تؤدي به إلى ضربات ثقيلة بقدر ما كانت محرجة. هل كانت هذه إحدى نكاتهِ التي تثير ضحكة عالية لا تقاوم، فتغور عيناه، ويُختزل وجهه في فمّ مفتوح ولحية تهتز، غير مبالٍ كليًا بخطورة كل ما حوله؟

لقد قلبتُ الكلمتين، وبغضّ النظر عن مدى تفكيري فيهما، لم أجد أيّ صدى للمزاح فيهما. بالتأكيد كان هذا أمرًا: دقيق وغريب أيضًا! وكان "تشالنجر" هو الرجل الوحيد في العالم الذي لم أهتمّ بعصيانه. ربما تتوقف إحدى تجاربه الكيميائية على ذلك؟ ربما، سحقاً!

لم يكن يعنيني أن أتكهَّن بشأن سبب احتياجهِ لذلك.

اضطررتُ للحصول على بعض الأكسجين، هذا كل شيء!

بقيتُ ساعة قبل أن أستقلّ القطار من محطة "فيكتوريا". قفزتُ في سيارة أجرة بعد أن تأكدتُ من العنوان في دليل الهاتف. اندفعتْ السيارة نحو شركة أسطوانات الأكسجين في شارع "أكسفورد". وبمجرد أن ترجلتُ من السيارة ونزلتُ أمام المبنى، خرج شابان يحملان أنبوبًا أسطوانيًا حديديًا؛ رفعوه بمشقة إلى الأعلى، وأسندوه أمامي في سيارة منتظرة.

وفي إثرهما، رأيتُ رجلاً مسنًا يظهر بصوت خشن هزلي يوبّخهما.

التفتَ إليَّ ... لم يكن عليَّ أن أتردد في تلك السحنة الصارمة الرثة، وتلك "السكسوكة": لقد كان زميلي الفظ الشرير، الأستاذ سمرلي.

- ماذا! صرخَ عندما رآني. لا تخبرني أنّه لديك واحدة من البرقيات السخيفة لأجل لأكسجين؟

أخرجتُها من جيبي.

" جيد! جيد! استلمتُ واحدة أيضًا كما تعلم، لقد أذعنتُ حقًا على مضض. صديقنا القديم، كالعادة، مستحيل! وكأنّه لا يستطيع الحصول على الأكسجين بالوسائل العادية!

لكن لا: كان عليه أن يتعدَّى على وقت أولئك الذين لديهم أشياء أفضل من القيام بها! لماذا لم يطلبها مباشرة؟

- يمكنني تخمينُ أنّه يحتاجها على وجه السرعة.

- أو يعتقد أنّه سيحتاجها على وجه السرعة! وهو ليس الشيء نفسهُ ... هيّا، لن تشتري أسطوانة أخرى. يوجد أوكسجين يكفي لشخصين، أليس كذلك؟

- انظر، يبدو أنّه يتمنى أن أحضر له واحدة. أنا أفضّل ألا أزعجه.

هزَّ سمرلي كتفيه، متأوهًا متذمرًا، لكنّني لم أتركه يمرّ: اشتريت زجاجة، وذهبتُ للانضمام إلى أول زجاجة في سيارته، لأنّه عرضَ أن يقتادني إلى فيكتوريا.

مشيتُ بعيدًا لدفع ثمن سيارة الأجرة الخاصة بي، كان السائق عابسًا: لقد طلبَ مني بقشيشًا باهظاً. أخيرًا، تخلصتُ منه وعدتُ إلى البروفيسور "سمرلي". كان على وشك أن يتصارع مع الموظفين الشباب الذين نقلوا الأكسجين الخاص به، اهتزَّت لحيته العنزيّة بغضب. صرخَ أحد الأولاد عليه، أتذكر، "كوكاتو عجوز أحمق!". أذهلتْ هذه الإهانة سائق سمرلي، وثارَ غضبه فنزلَ من مقعده لمعاقبة الوقح ذاك. لقد تجنّبنا القتال بصعوبة.

قد تبدو كل هذه التفاصيل مبتذلة للغاية، ولا تستحق الظهور في قصتي. لكن الآن فقط، بعد مرور الوقت، أستطيعُ أن أرى مكانهم في سلسلة الأحداث كما توجَّب عليَّ كشفها.

كان سائق سمرلي مبتدئًا، أو فقدَ أعصابه في ذلك الشجار، إلا أنَّه اتَّضح أنَّه كان أخرق للغاية. لقد كدْنا أن نصطدم بسيارتين أخريَيْن - كانت القيادة سيئة أيضًا - وأتذكرُ أنّني أخبرتُ "سمرلي" أنَّ متوسط جودة السائق في لندن قد تدنَّى. ثم اقتربنا كثيرًا من حشد تشكَّلَ لمشاهدة شجار في زاوية المركز التجاري؛ هم متحمسون للغاية. صاح الناس بغضب على "سائقنا"، حتى إنَّ أحدهم قفزَ على الدرج ولوَّح بعصا في اتجاهنا. لقد دفعتهُ بعيدًا، لكننا لم نشعر بالأسف لترك الحديقة سالمين.

كل هذه الأحداث الصغيرة، التي توالت واحدة إثرَ الأخرى، تركتني فاقداً لأعصابي ومتوترًا. أمَّا بالنسبة لرفيقي، فإنَّ سلاطة لسانه تعكسُ نفاد صبره. لم يعد قادرًا على التحكم فيه.

استعدْنا روح الدعابة أمام اللورد جون روكستون، الذي كان ينتظرنا على الرصيف: كان مايزالُ نحيفًا وطويلًا، وكان يرتدي بدلة صيد من التويد. عندما رآنا؛ أضاءَ وجهه الحاد، الذي تهيمنُ عليه عيون لا تُنسى، شرسة ومبتسمة معًا. كانت الخيوط الرمادية تتخلل شعره الداكن، وحُفرت أخاديد عميقة في جبينهِ بفعل معول الزمن، لكنّه كان مايزال هو اللورد جون رفيقنا الجيد كالسابق.

- مرحباً! يا أستاذ! يا مرحباً! صديقي الشاب!

هدرَ فَرِحًا عندما رأى أسطوانات الأوكسجين على عربة الحمَّال خلفنا.

- إذن، لقد وصلتكُما أيضًا؟ خاصّتي في الشاحنة. فماذا يمكن للرجل العجوز أن يفعل بها؟

- انتظرْ!، أخبرتهُ: هل قرأتَ رسالتهُ إلى التايمز؟

- عمَّ كانت؟

- كلام سخيف وهراء! قال سمرلي بشدة.

-حسناً! إنَّها أساس هذه القصة من الأكسجين، أو أنا مخطئ!. قلتُ

- كلام سخيف!. كرَّر "سمرلي" بعنف لم يكن ضروريًا على الإطلاق.

أخذنا مقاعدنا في حجرة تدخين من الدرجة الأولى، وكان قد أشعلَ بالفعل غليون الخلنج القصير والسخام الذي بدا أنّه يمدّ الخط العدواني لأنفه.

- صديقنا "تشالنجر" رجل ذكي! قال باتّقاد شديد. لا أحد يستطيع أن ينكر ذلك. يجب أن تكون مجنونًا لإنكار ذلك. تأمّلْ في قبعته: تحتها دماغ يزنُ ستينَ آونساً. إنّه محرِّك كبير، ويعمل بشكل جيد، ويقوم بعمل جيد. أرني غطاء المحرك، سأخبركَ بحجم المحرك. ومع ذلك، فإنَّ تشالنجر هو أيضًا مشعوذ بالفطرة.

سمعتَني: رميتهُ في وجهه مرة. ولد دجَّال، أخرق؛ يجب أن يكون دائمًا في دائرة الضوء. كل شيء هادئ؟ حسناً! يبحث عن فرصة للتحدث عنها!
ألا تتخيَّل أنّه يؤمن بجدية بحماقته في تعديل الأثير الذي من شأنهِ أن يعرّض الجنس البشري للخطر؟ من جانبهِ، إنّه اختراع خالص: أوافقُ على أنّه أكثر اختراع جرأة وأقوى اختراع تمَّ إنتاجه على هذه الأرض، ولكن ...
بدا وكأنّه غراب عجوز مطلي باللون الأبيض، ينعب بضحكة ساخرة هزَّت جثته.
عند الاستماع إليه، شعرتُ بالغضب يغمرني. ألم يكن من غير اللائق الحديث عن قائدنا الذي كان مصدر كل شهرتنا، والذي قدَّم لنا تجربة لا مثيل لها؟ فتحتُ فمي للرد بحسم على أقواله، لكنَّ اللورد جون سبقني:
"لقد تقاتلتُ مرة واحدة مع تشالنجر العجوز"، قال ببرود لسمرلي. وقد خرجتُ بعد عشر ثوانٍ"
"يبدو لي يا أستاذ "سمرلي"، أنّه تجاوزَ صفّك. أفضل ما عليكَ فعله هو مسايرته: اتركه وحده في المقدمة!
أضفتُ على الفور:
- علاوة على ذلك، كانَ دائمًا صديقًا جيدًا لنا جميعًا. مهما كانت عيوبهُ، فهو مستقيم مثل الخط، ولا أعتقد أنَّه تحدَّث بشكل سيء عن رفاقه من وراء ظهورهم.
- حسنًا ما قلتَ، صديقي الشاب! ...
أعطاني اللورد جون روكستون ابتسامة لطيفة، قبل أن يربّت "سمرلي" الودود على كتفه:
"هيا يا بروفيسور، لن نبدأ هذا اليوم بالشجار، أليس كذلك؟"
لقد رأينا الكثير معًا! لكن احذرْ من أن تدوس على العشب عند لمس تشالنجر، لأنّنا، أنا والشاب الصغير، نضعفُ أمام هذا الأستاذ العجوز العزيز.
لسوء الحظ! فإنَّ مزاج "سمرلي" لم يرضخ للتسوية. كان وجهه مغضّنًا. ملامحهُ مشدودة في رفض مطلق يوحي فقط برفض التخلّي عن منصبه. تملّصت تموُّجات دخانيّة كثيفة غاضبة من غليونه.
تكلَّم صوتهُ الصارخ إلى اللورد جون:
- رأيكَ في موضوع علمي، في نظري، لهُ القيمة نفسها التي قد يقدّمها لك رأيي في نموذج جديد للبندقية. لديَّ حفيظتي الخاصة يا سيدي، وأنا أستخدمُها كما أراه مناسبًا. لأنّه خدعَني مرة واحدة، فهل هذا سبب لقبولي دون تمحيص أيَّ شيء بعيد المنال، والذي قد يهتم هذا الرجل بطرحه؟ هل سيكون لدينا إذن "بابا" للعلم، تُعلنَ مراسيمه المعصومة من قبل الكاتدرائية، والذي يجب أن ينحني أمامه الجمهور الفقير دون تذمّر؟
يشرّفني، سيدي، أن أبلغكم أنَّ لديَّ أيضًا عقلًا، وأنّني سأعتقد أنّني كنتُ متملقًا أو عبدًا إذا لم أستخدمهُ. ربما ترغبُ في تصديق صحة هذه العبارات

غير المتّسقة حول الأثير والخطوط الطيفيّة لفراونهوفر؟ حسنًا، لا تخجل! لكن لا تطلب من رجل أكبر منك، وأكثر ثقافة منك، أن يشاركَ حماقتك.

دعنا نرَ، سيدي، إذا تأثّر الأثير بالدرجة التي يدَّعيها "تشالنجر"، وأصبحَ ضارًا بصحة الإنسان، ألن تظهر النتائج على أنفسنا؟

ضحكَ، بدت له هذه الحجة غير قابلة للإجابة.

- نعم سيدي، يجب أن نكون مختلفين تمامًا عمَّا نحن عليه الآن! بدلاً من الجلوس بهدوء في القطار ومناقشة الأمور العلمية، يجب أن يظهر علينا بعض أعراض السمّ الذي يسري في أجسادنا.

أين ترى أيّة علامة من علامات هذا الاضطراب الكوني؟ تعالَ يا سيدي، أجبْ على ذلك! هل من إجابة؟ تعالَ، بدون مرواغة! أحثّكَ على الرد!

شعرتُ بالغضب أكثر فأكثر. فكان هناك شيء مزعج وعدواني للغاية بشأن سلوك "سمرلي" ... لم أعد أستطيعُ تمالك نفسي بعد الآن.

- أعتقدُ أنّه إذا كنتَ تعرف الحقائق بشكل أفضل قليلاً؛ فستكون أقلّ تحيزًا لرأيك!

سحب "سمرلي" غليونهُ من فمه، وثبَّت ناظريه عليَّ بحدقتيْن متحجرتين.

- هلّا أخبرتني، سيدي، ما الذي تدلّ عليه هذه الملاحظة الوقحة إلى حدٍّ ما؟

- أريدُ فقط أن أقول هذا: عندما غادرتَ الصحيفة، تلقينا للتو برقية تعلنُ تفشّي وباء عام بين سكان سومطرة، وأضافت الرسالة أنَّ المنارات لم يتمّ تشغيلها في مضيق سوندا.

انفجرَ "سمرلي" في غضب عارم.

- حقًا، يجب أن تكون هناك حدود للجنون البشري والغباء! ألا تفهم أنَّ الأثير، إذا تبنّينا فرضية "تشالنجر" المُحَالة للحظة. هو مادة عالمية هي نفسها الموجودة في الجانب الآخر من العالم؟ هل تصادفَ أنَّ هناك أثيراً إنجليزياً، وأثيراً معيّناً في سومطرة؟ ربمّا تتخيل أنَّ "أثير كينت " أفضل من "أثير ساري" حيث يحملنا قطارهُ حاليًا؟ ... لا، ليس هناك حدود لسذاجة وجهل الشخص العادي! هل من المعقول أن يكون الأثير في سومطرة مميتًا لدرجة أنّه يتسبب في فقدان تام للإدراك هناك؟، بينما في الوقت نفسه ليس له تأثير ملموس هنا؟. في الحقيقة، أستطيع أن أقول أنّني شخصياً لم أشعر قط بمزيد من الصلابة جسديًا، أو أنني أملك عقلًا متوازنًا مثل هذه الأيام!

- ممكن، (أجبتهُ). أنا لا أجاهرُ بكوني عالمًا. ومع ذلك، فقد سمعتُ أنّه يقول مرارًا وتكرارًا أنَّ علم جيل ماهو إلا مغالطة بالنسبة للجيل الذي يليه. ولكنَّ الأمر لا يتطلب الكثير من الوعي لرؤية أنّه نظرًا لكون الأثير غير معروف جدًا للعلماء، يمكن أن يتأثر باضطراب إقليمي محلّي، في بعض أجزاء العالم حيث يتجلّى هناك، وقد يُظهر تأثيرًا سيتطور في وقت لاحق هنا.

صرخَ سمرلي، غاضبًا بشكل ما: "معَ كل مشروطيّات العالم"، يمكن أن نثبتَ أيّ شيء! يمكن أن تطيّر الخنازير. نعم سيدي، يمكن للخنازير أن تطير، لكنّها لا تطير! كما أنّه من غير المجدي مناقشة الأمر معك.

لقد ملأكَ "تشالنجر" بهراءهِ. أنتما الاثنان غيرُ معقوليْن: كأنّما أتجادلُ مع وسائد المقصورة!

اتخَّذ اللورد جون وجهاً صارماً:

"أشعرُ بأنّني مجبر على إخبارِكَ، بروفيسور "سمرلي"، أنَّ أخلاقكَ لم تتحسن منذ آخر مرة سعدتُ بمقابلتك!"

- سيادتكم غير معتادين على سماع الحقيقة؟ إنّها صدمة قليلًا، أليس كذلك؟، عندما يجعلكَ شخص ما تدرك أنَّ لقبكَ لا يتركَ أكثر من رجل جاهل للغاية.

"ثقْ بكلمتي، سيدي!"، ردَّ اللورد جون بقسوة، "إذا كنتَ أصغر سنًا، فلن تجرؤ على التحدث معي بهذه اللهجة المهينة للغاية!

رفعَ "سمرلي" لحيتهُ الهزيلة كلحية الماعز، وارتعشت ذقنهُ بحدة:

- وددتُ أن أعلمكَ يا سيدي أنّه لم يمضِ وقت في حياتي - صغيرًا كنتُ أم كبيرًا- إلا وكنتُ خائفًا من الإفصاح عمَّا يدور بخَلدي أمام سيد جاهل مغرور... نعم، سيدي، إلى سيد جاهل مغرور! ...لو كان لديكَ ألقاب كثيرة يمكن للعبيد خلعها، أو للحمقى تبنّيها.

اتّقدت عيني اللورد جون لبرهة. ومع ذلك، وبجهد بلغَ ذروته، قام بترويض غضبه. اتّكأ على كرسيه وعقدَ ذراعيه. ولكن يا لها من مرارة في الابتسامة!

شعرتُ بالاشمئزاز والفزع. ماجتْ في صدري ذكرى ماضينا المشترك: صداقتنا الحميمة، وأيام فرحنا، والمغامرات، وأيضًا كل معاناتنا، وقلقنا، وعملنا ... كل ما ربحناهُ أخيرًا! أكانَ يجب تذكّر كل هذا قبل هذه اللحظة؟ الإهانات والشتائم ... ثم انفجرتُ في البكاء، بكاء مسموع الصوت، أجهشتُ، ولم أعد أستطيع السيطرة على دموعي، التي أبتْ أن تتوقف. التفتَ إليَّ رفاقي في دهشة. فغفرتُ رأسي بيدي.

ثم قلتُ:

- لا بأس، كل شيء على ما يرام. فقط، فقط هذا أمر مؤسف!.

- أنتَ مريض يا عزيزي! همسَ اللورد جون. أظنُّ أنَّ بك خطباً ما، منذ البداية وجدتكَ غريبًا.

تدخَّل سمرلي بشدة:

- خلال هذه السنوات الثلاث، لم تقم يا سيدي بتصحيح عاداتكَ! لم أخفق في الملاحظة منذ اجتماعنا أنَّ سلوككَ كان غريبًا أيضًا. لستُ في حاجة لتبديد تعاطفكَ لورد جون! هذه دموع الثمالة بكل معنى الكلمة: كان مالون يشرب، هذا كل شيء!

بالمناسبة، لورد جون، لقد دعوتكَ بالمغرور للتو، وذلك كان قاسيًا على نحو غير ملائم.
لكنَّ الكلمة تذكّرني بإنجاز صغير، تافه، لكنّه مسلٍّ، ما كنتُ لأمتلكه: أنتَ تعرفني كعالِم صارم، أليس كذلك؟ هل تصدّقني إذا أخبرتكَ أنّه في عدد قليل من دور الحضانة اكتسبتُ سمعة مستحقة - أستحقُّها تمامًا كمقلد؟، أقوم بتقليد حيوانات المزرعة إلى حدّ الكمال. بالمناسبة، ستكون طريقة لطيفة لقضاء وقتنا هنا! إذا أسعدكَ أن أسلّيك بتقليدي للديك ذي العُرف.
-لا سيدي! أجابَ اللورد جون، (مايزالُ غاضبًا من الإساءة التي تلقّاها)، لن يُسلّيني.
" تقليدي للدجاجة التي تقرقر بعد أن وضعتْ بيضتها للتو، يُعتبر ــ إلى حد ما ــ فوق المتوسط، هل يمكنني المجازفة وعرض الأمر؟
- لا سيدي لا! بالتأكيد لا!
لكنَّ الأستاذ سمرلي كان مصمماً على تجاهل النفي الصارم من قبل اللورد "جون". وضعَ غليونه بالفعل ... حتى نهاية رحلتنا، شتَّت انتباهنا - على الأقل حاولَ تشتيت انتباهنا - بسلسلة من صرخات الطيور والحيوانات المختلفة التي بدت سخيفة جدًا بالنسبة لنا. لدرجة أنَّ دموعي توقفت عن التدفق، وتبدلت بضحكة هستيرية تقريبًا عندما رأيتُ، أو بالأحرى سمعتُ، الأستاذ الرزين الجالس أمامي يقلد الديك الهائج، أو الجرو الذي يدعسُ ذيله!
وبمجرد أن ألقى اللورد جون نظرة عليه عبر جريدته، كتبَ على الهامش بقلم رصاص:
"شيطان مسكين! مخبول حقًا!"
من الواضح أنّه كان غريب الأطوار للغاية، ومع ذلك، أذهلتني "موهبتهُ الصغيرة" باعتبارها مسلّية بشكل غير عادي.
ثم انحنى اللورد جون عليَّ، وأخبرني قصة لا تنتهي: كانت عن جاموس ومهراج هندي. شعرتُ وكأنّه ليس لها ذيل ولا رأس.
عندما شعرنا بتباطؤ حركة القطار، كان البروفيسور "سمرلي" يزقزق كالكناري، ووصلَ اللورد جون إلى ذروة قصّته، كنّا قد وصلنا إلى "جارفيس بروك"، المحطة الصغيرة التي قيلَ لنا أنَّها الأقرب إلى روثرفيلد.
كان "تشالنجر" هناك للترحيب بنا. بدا متألقاً. لا يوجد طاووس على الأرض منذ الخلق يمكن أن ينافسهُ في مشيته البطيئة المتمايلة المهيبة، كالتي طافَ بها على رصيف المحطة. وابتسامته العطوفة الممتلئة بالتعجرف اللطيف. إذا كان قد تغيَّر شيء منذ الأيام الخوالي، فقد تغيَّر باتّجاه أن يكون أكثر حدة: الرأس الضخم والجبهة العريضة، وخصلات شعره الأسود المقطر بالدهن فوق رأسه قد اكتسبَ حجمًا، وانسدلت لحيتهُ إلى الأمام في تدفّق

مثير أكثر للإعجاب. وتحت الجفون الصلِفة الساخرة، أكدتْ عيناهُ الرماديتان الفاتحتان رغبتهُ غير العادية في الهيمنة.
صافحَني بمرح وبابتسامة مشجعة كتلك التي يعطيها مدير المدرسة لأصغر فتى في الصف، ثم استقبلَ رفاقي. ساعدَنا في جمع أسطوانات الأكسجين وجمع الحقائب.
لقد دفعَنا ورتّبهم في سيارة كبيرة يقودها "أوستن"، الرجل الهادئ الذي رأيته يعمل كخادم شخصي في زيارتي الأولى -الحافلة بالأحداث- للأستاذ.
قادتْنا رحلتنا إلى تلّ متعرج يطلّ على ريف جميل. جلستُ بجوار السائق، ولكن بدا لي أنَّ رفاقي الثلاثة يتحدثون في الوقت نفسه. كان اللورد جون مايزال يجاهد لأجل قصة الجاموس، بقدر ما أمكنني تبيُّن الأمر، بينما سمعتُ مجددًا، كما كان في السابق، القعقعة العميقة لـ "تشالنجر"، واللهجات اللجوجة لـ "سمرلي"، حيث تخوضُ أدمغتهما نقاشًا علميًا شرسًا.
بغتةً، أدارَ "أوستن" وجههُ المظلم نحوي، لكنَّ عينيه ظلتا ثابتتيْن على مقود السيارة.
- لقد أعطاني إخطارًا بالإقالة!
- يا إلهي!
كان كل شيء اليوم غريبًا. قال الجميع فقط أشياء غريبة وغير متوقعة، كما في الحلم.
- هذه هي المرة السابعة والأربعون، أضافَ بعد التفكير.
- متى ستذهب؟
سألته، لأجل معلومة أوضح.
- لن أذهب.
كان من الممكن أن تنتهي المحادثة عند هذا الحد، لكنَّ "أوستن" سرعان ما عاد.
- إذا غادرتُ فمن يعتني به؟ أصرَّ مشيراً إلى سيده بإيماءة الرأس. مَن سيوجد ليخدمهُ؟
- سيجدُ شخصًا آخر، أليس كذلك؟ افترضتُ.
- هو؟ لا أحد! لن يبقى أحد أكثر من أسبوع. إذا غادرتُ؛ فسيُدار المنزل كساعة بدون زنبرك. أقولُ لك هذا لأنكَ صديقه، يجب أن تعرف.
إذا صحَّ لي أن أذعنَ لرغبته، ولكن عندها لن أملكَ قلبًا!
سيكون هو وزوجته مثل طفلين متروكين في صُرّة. لقد فعلتُ لهم كل شيء. ومع ذلك، ها هو يأتي ويطردني!
- لماذا لا يبقى أحد؟ سألتُ أنا.
"حسنًا، لن يقدّموا أيّ علاوات، مثلما أفعل. إنّه رجل ذكي جدًا، الرئيس! ذكي للغاية إلى درجة أنّه أحيانًا مجنون تمامًا. أقسمُ لك: رأيتهُ مجنوناً!
هنا، هل تعرفُ ماذا فعل هذا الصباح؟

- ماذا فعلَ هذا الصباح؟
انحنى أوستن نحو أذني هامسًا:
- عضَّ مدبرة المنزل.
- عضَّها؟
- نعم يا سيدي! لدغة في الساق. رأيتُها بأم عيني تشرعُ في سباق الماراثون عند باب الردهة.
- يا إلهي، يا لهُ من رجل!
- أنتَ أيضًا، ستصفهُ بالجنون إذا كان بإمكانكَ رؤيته كما أراه! لا يقيمُ صداقات مع الجيران. هناك من يعتقد أنّه عندما كان مع الوحوش التي ذكرتَها، كانوا بالنسبة له المنزل، البيت الجميل، الرفاق المناسبين، ماذا! هذا ما قالوه. لكنّني في خدمته لمدة عشر سنوات، وأنا أحبّه.
إنّه رفيق عظيم بعد كل شيء، وهناك شرف في خدمته يا سيدي! فقط أحيانًا يحدث أن يكون لئيمًا. الآن انظر إلى ذلك يا سيدي. لا أستطيع أن أقول أنَّ هذا يبدو وكأنّه ضيافة كلاسيكية، مهلاً؟ اقرأ بنفسك!
ببطء شديد، صعدتُ السيارة الأمتار القليلة الأخيرة من التل، ممَّا أدى إلى منعطفات حادة. في الزاوية، ظهرتْ لافتة فوق سياج مشذب جيدًا. كان أوستن محقًا: لم يكن من الصعب قراءته؛ فالكلمات كانت قليلة ومقتضبة:
تنويه
الزوار والصحفيون المتسولون غير مرغوب فيهم.
جي إي تشالنجر.
قال أوستن،: "لا، ليس هذا ما تسميه دافئًا!"
هزَّ رأسه وهو يسير أمام تلك العلامة المؤسفة، وأضاف:
"لن تبدو جيدة في بطاقة عيد الميلاد ... أستميحكَ عذراً سيدي؛ منذ سنوات عديدة لم أتحدث بقدر ما أتحدث اليوم. لكن اليوم ... حسنًا! إنّه ليس يومًا مثل أيّ يوم آخر! يمكنهُ طردي ذات يوم، وسيغلب الحزن وجهه، لكنّني لن أذهب. فأنا خادمهُ، وهو سيدي، وآمل أن يظلَّ كذلك حتى نهاية حياتي."
لقد مررنا عبر الأعمدة البيضاء للبوابة، وصعدنا طريق تصطفُّ على جانبيه شجيرات "الرودودندرون".
وبعيدًا ظهرَ منزل منخفض من الطوب مزدان بأعمدة خشبية بيضاء، جذابة للغاية ومريحة.
وقفتْ السيدة "تشالنجر"، الصغيرة، اللطيفة، المبتسمة في المدخل لتحيّينا.
- حسناً! (قالَ تشالنجر): يا عزيزتي، (صائحًا مغادرًا للسيارة): ها هم زوَّارنا!
إنّه لأمر مدهش أن يكون لدينا مضيفان، أليس كذلك؟

مع جيراننا، نحنُ نعيش بالأحرى في خلافات. إذا تمكّنوا من وضع سم الفئران في الخبز الذي يجلبهُ لنا الخباز، أعتقد أنَّهم سيقومون بذلك!

- هذا مريع! رهيب! (صاحت السيدة بين الضحك والدموع)، جورج دائماً يتشاجر مع الجميع. ليس لدينا صديق في الريف.

قال "تشالنجر" وهو يلفُّ ذراعًا قصيرًا ثخيناً حول خصرها: "وهو ما يسمح لي بتركيز انتباهي على زوجتي التي لا تُضاهى".

تخيّل غوريلا وغزالاً: أمامنا زوجانِ منهما!

-هيا، هيا! لقد تعبَ هؤلاء السادة من رحلتهم، ويجب أن يكون الغداء جاهزًا. هل عادتْ سارة؟

ردَّت السيدة تشالنجر بإيماءة سلبية، ضحكَ الأستاذ، وضربَ لحيتهُ برضاً عن النفس.

- أوستين! (صرخ). عندما تقوم بإيقاف السيارة، سوف تحتاج السيدة إلى مساعدة في تحضير الطاولة. الآن، أيّها السادة، هلّا تفضّلتم بمرافقتي إلى مكتبي؟ لديَّ شيءٌ أو شيئان ملحَّان للغاية، وأنا حريص على قولهما لكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مدّ الموت

أثناء عبورنا القاعة، دقَّ جرس الهاتف؛ لذا عن غير قصد استمعنا للبروفيسور "تشالنجر" يردُّ على شخص غريب.

أقولُ: "نحن"، ولكن في الحقيقة، على بعد مائة ياردة، كان من الممكن أن يسمع أيُّ شخص دويّ هذا الصوت الشنيع الذي جعلَ المنزل كله يرتجف.

غُرستْ أجوبتهُ في ذاكرتي لمدة طويلة.

- نعم، نعم، بالطبع، أنا ... نعم، بالتأكيد، الأستاذ تشالنجر، الأستاذ الشهير نفسه ... بالطبع! كل كلمة. وإلا لما كتبتُ ... لن يفاجئني ... يبدو أنَّ كل شيء يدللّ على ذلك ... في يوم أو يومين على الأكثر ... حسنًا! لا أستطيع منع أيّ شيء. كيف يمكنني ذلك؟ ... مزعج للغاية، بلا شك، لكنّي أعتقد أنّه سيؤثر على الأشخاص الأكثر أهمية منكَ. لا داعي للعويل ... لا، لا أستطيع: اغتنمْ فرصتك ... كفى يا سيدي! هراء! لديَّ أشياء أفضل لأفعلها من الاستماع إلى هذا الهذر!

أنهى المكالمة بقوة واقتادنا إلى الطابق الأول، إلى غرفة كبيرة جيدة التهوية كان يستخدمُها كمكتب له. كانت سبعٌ أو ثماني برقيات غير مفتوحة متناثرة على مكتبه المصنوع من خشب الماهوجني الأنيق.

قال مشيرًا إليهم: "لقد بدأتُ في الاعتقاد بأنّني سأوفّر أموال المراسلين؛ إذا استعملتُ عنوانًا تلغرافيًا. ماذا عن "نواه، روثرفيلد"؟ هذا سيكون ملائمًا."

أثناء استغراقهِ في هذه النكتة غير المفهومة، جأرَ ضاحكًا بصوت عالٍ، متكئًا على مكتبه، وقد اهتزَّ من نشوته إلى درجة أنَّ يديه كافحتا للإمساك بالرسائل.

"نواه! نواه! لفظ لاهثاً.

كان أحمرَ الوجه مثل الشمندر. بينما ابتسمنا- أنا واللورد جون- في تعاطف مشفقيْن. مثل ماعز كئيب، هزَّ "سمرلي" رأسه في تعارض ساخر.

بدأ تشالنجر - الذي مايزال يهدرُ بوجه محتقن- أخيرًا في فتح برقيّاته، بينما كنّا نحن الثلاثة معجبين عبر الشرفة القوسية الكبيرة بالبانوراما الرائعة التي تكشَّفت أمام أعيننا.

بالطبع، المشهد يستحق الإعجاب! أوصلنا الطريق بمنحنياتهِ المروّضة إلى ارتفاع كبير، حوالي سبعمائة قدم، كما كنّا سنكتشف لاحقًا.

يقع منزل "تشالنجر" على قمة التل مباشرةً، ومن وجههِ الجنوبي، أي تلك التي فُتحت فيها نافذة المكتب. يمكن للمرء النظر عبر الامتداد الشاسع

لغابات الـ "ويلد" إلى حيث سهول "ساوث دوانز" الوعرة التي شكلت الأفق.
وفي الفلوج بين هذه التلال البعيدة، يستطيع المرء تبيّن السديم الدخاني المشير إلى حيث تقع بلدة لويس.
مباشرة عند أقدامنا، يرقد سهل "جاي" المنحدر المليء بنبات الخلنج.
وعلى مساحات شاسعة ممتدة من الحشائش الخضراء الزاهية إلى حيث ملعب "كوروبرو" للغولف، المزدان بأكمله باللاعبين.
إلى الجنوب، كان الطريق من لندن إلى برايتون يلوح في الأفق عبر الغابة. بجوار المنزل أسفل أنوفنا، كانَ هناك فناء صغير مسيَّج يضم السيارة التي نقلتنا.
جعلتْنا صيحة من "تشالنجر" نستدير. كان مضيفُنا قد قرأ رسائله، وقام بتكويمها بشكل متناسق على مكتبه. كان وجههُ المجعد ذو الجبين العريض، ذو الملامح غير المنتظمة، أو على الأقل ما كان يُسمح برؤيته خلف لحيتهِ المشعثة، مايزالُ محتقنًا بالكامل، يحسبهُ المرء تحت تأثير انفعال قوي.
" حسنًا! (صرخ): أيّها السادة (بصوت يناسب اجتماعًا عامًا وخاصًا): أنا سعيد لأنّنا الأربعة هنا! أنا حتى أكثر من سعيد؛ لأنَّ اجتماعنا ينعقد في ظروف استثنائية ... ينبغي أن أقول: لم يسبق له مثيل. هل لي أن أسألكَ إذا لاحظتَ أي شيء غير طبيعي أثناء رحلتكم من لندن؟
قال سمرلي بابتسامة متكدّرة: "الشيء الوحيد الذي لاحظتهُ هو أنَّ صديقنا الشاب لم يتحسن منذ ثلاث سنوات. يؤسفني أن أشير إلى أنّه لزمني أن اشتكي بجدية بشأن سلوكه في القطار، وسأكون كاذبًا إذا لم أقم بإضافة أنّني منزعج من هذا السلوك.
تدخَّل اللورد جون:
-هدّئ من روعكَ! كلّنا نتكلم في بعض الأحيان. هذا الشاب لم يرتكب أي خطأ. بعد كل شيء، إنه ليس من بلدنا، وإذا احتاجَ إلى نصف ساعة لوصف مباراة كرة قدم، فيحقّ له أكثر من أي شخص آخر!
- نصف ساعة للحديث عن مباراة كرة!
صرختُ بسخط.
كيف! كنتَ أنت من استغرقَ نصف ساعة ليسردَ قصة مطولة عن الجاموس. يمكن للبروفيسور سمرلي أن يشهد...
- بالكاد أستطيعُ أن أحكم على أيٍّ منكم كان أكثر مللاً! قال سمرلي. أؤكد لكَ يا تشالنجر أنّني أشعر بالاشمئزاز حتى نهاية أيامي من قصص كرة القدم أو الجاموس.
- لم أذكر كرة القدم قطّ!
صدرتْ عن اللورد جون زفرة حادة، وأومأ سمرلي برأفة مهينة:

- في وقت باكر جداً من اليوم! (تنهَّد). إنّه أمر كئيب للغاية. بينما جلستُ في صمت كئيب ولكن رصين...
- بصمت! احتجَّ على اللورد جون. كيف؟! لقد قدمتَ لنا عرضًا كاملاً لقاعة موسيقية: لتقليد الأصوات طوال الطريق ... تشبهُ الجراموفون أكثر من كونكَ رجلًا!
سحب "سمرلي" نفسهُ مبتعدًا في احتجاج مرير.
" يسّركَ أن تكون طريفًا. لورد جون". قال بوجهٍ نكِد.
- بالله عليك! هل كلنا مجانين؟ (صرخَ اللورد جون). يبدو أنَّ كلَّ واحد منّا يتذكر ما فعلهُ الآخران، لكن لا أنتَ ولا هو ولا أنا أتذكّر ما فعلناهُ شخصيًا. دعنا نعود إلى البداية. وصلنا إلى حجرة تدخين من الدرجة الأولى؛ هل هذا صحيح؟ نعم أم لا، ثم دخلنا في جدال حول رسالة صديقنا تشالنجر إلى التايمز ...
-حسناً، هل حقاً؟ (هدرَ مضيفُنا)
بينما يتكلَّم تهدلتْ جفونه.
"قلتَ، سمرلي، إنَّ تأكيدات تشالنجر لا تحتوي على ذرة من الحقيقة."
- "اللعنة! (صاحَ تشالنجر شاهقًا صافعًا لحيتهُ). ليست ذرة الحقيقة؟ يبدو أنّني سمعتُ هذه الكلمات من قبل في مكان ما. فهل لي أن أسألَ البروفيسور العظيم والمشهور سمرلي ما الحجج التي هدمَ فيها رأي الإنسان المتواضع، الذي خاطرَ بالتعبير عن رأيه في إمكانية علمية؟ ربّما يوافق - قبلَ إبادة هذين البطلين المؤسفة -على أن يخبرهُ: على أيّ أساس اعتمدَ في بناء نظرية معاكسة؟".
انحنى، هزَّ كتفيه، ثم وضعَ يديه معًا في إيماءة فيليّة ساخرة.
قالت سمرلي بعناد: "أساس متين بما يكفي". لقد زعمتُ بالفعل أنّه إذا كان الأثير الذي يحيط بالأرض سامًا بدرجة كافية لإحداث بعض الأعراض المزعجة في مكان ما، فمن غير المرجح ألّا نتأثر نحنُ الثلاثة به بأيّ شكل من الأشكال.
كان لتفسير سمرلي نتيجة واحدة فقط: انفجار مدوٍّ. بدأ تشالنجر بدفعة من الضحك، لم تتوقف إلا عندما بدأ كل شيء في الغرفة يلهثُ ويرتعد.
وقال وهو يمسح جبينه المتعرّق: "عثرَ صديقنا "سمرلي" الشجاع، وهذه ليست المرة الأولى، على قليل من الحقائق".
الآن، أيّها السادة، لم أستطع شرح وجهة نظري أفضل من تفصيل جدولي هذا الصباح. سوف تتغاضون بسهولة أكبر عن الانحرافات العقلية الخاصة بكَ عندما تعلم أنني ... حتى أنا! مررتُ بأوقات فقدتُ فيها توازني. منذ بضع سنوات حتى الآن، قمنا بتوظيف مدبرة منزل هنا، سارة ... لم أرهق ذاكرتي في تذكّر اسمها الثاني. هي امرأة ذات طابع شديد صارم. ماتزالُ لديها طباع بدائية رزينة. لديها طبيعة محكوم عليها من حيث الجوهر بالعجز، ولم أرَ قط

إظهارها لأدنى عاطفة. كنتُ بمفردي أتناول الإفطار - عادةً ما تبقى السيدة تشالنجر في غرفتها في الصباح - وخطرَ ببالي فكرة: اعتقدتُ أنّه سيكون من الممتع والمفيد أن أرى إلى أيِّ مدىً هذه المرأة يمكن أن تبقى دون قلق. لذلك صممتُ القيام بتجربة بسيطة بقدر ما كانت فعالة. قلبتُ آنية الزهور الصغيرة التي كانت على مفرش المائدة، وقرعتُ الجرس وانزلقتُ تحت الطاولة. هي دخلت، ظنَّت أنَّ الغرفة كانت فارغة. تخيلتْ أنني عدتُ إلى مكتبي. كما توقعتْ، سارت نحو الطاولة وانحنت لرفع المزهرية. كنتُ أرى جوربا قطنياً وحذاءَ عمل مطاطي. ماذا فعلتُ؟ رفعتُ رأسي إلى الأمام، وغرستُ أسناني في رِبْلَة ساقها.

كانت التجربة ناجحة بما يتجاوز كل التوقعات. لبضع ثوان، بقيتْ متحجرة، وهي تحدّق في رأسي الناتئ تحت مفرش المائدة. ثم أطلقتْ صرخة مدوية، وتحررتْ، وهربت من الغرفة. طاردتُها لأعطيها بعض التفسير، بدا لي أنَّ لها الحق في ذلك. لكنّها كانت تدور مثل الريح. بعد فترة وجيزة، رصدتُها على الطريق بمنظاري: كانت ماتزالُ تجري، توجهتُ إلى الجنوب الغربي، ولم أرَها مرة أخرى. إنّني أخبركم بهذه الحكاية لقيمتها: فأنا زرعتُ الأمر في رؤوسكم وأنتظرُ ما سينبتُ فيها. هل الأمر واضح؟ هل تجدهُ مرتبطاً بأي شيء في ذهنكَ؟ اللورد جون، ما رأيكَ في ذلك؟

هزَّ اللورد جون رأسه بشدة.

- ستواجهُ يومًا ما مشكلة خطيرة؛ إذا لم تضع حدًا لذلك!

- ربما لديكَ وجهة نظر، سمرلي؟

- يجبُ أن تتخلى عن كل الأعمال على الفور، تشالنجر! وعليكَ بقضاء ثلاثة أشهر في منتجع صحّي في ألمانيا.

- هذا بليغ، بليغ! الآن يا صديقي الشاب! يُحتمل أن تأتي الحكمة منكَ، حيث فشلَ شيوخك في الإتيان بها!

حقًا، لقد تكلمت الحكمة من خلال فمي. أقولُها بكل تواضع، لكنّي أقولها. بالطبع، بالنسبة لأولئك الذين يعرفون ما حدث، ستجد إجابتي واضحة! لكن ضعْ في اعتبارك أنّه في ذلك الوقت كان كل شيء جديدًا، واعلمْ أنَّ التفسير المطلوب لم يكن من السهل العثور عليه.

بكل قوة الاقتناع المطلق، قلتُ الجملة الصحيحة:

- لقد تسممّتُ! إنّه السم!

كما قلتُ، تذكرتُ حلقات الصباح المختلفة: اللورد جون مع جاموسه، سمرلي وأخلاقه المهينة، دموعي الهستيرية، ثم تلك الحوادث الغريبة في لندن: الشجار في الحديقة، أسلوب قيادة السائق، الجدل في متجر الأوكسجين، كل شيء تصاعدَ فجأة إلى مكانه الصحيح:

- مسموم! يوجد سمّ في الهواء. كلّنا مسمومون!

- "هذه هي الحقيقة!". قالَ تشالنجر وهو يفرك يديه معًا.

كلنا مسمومون. كوكبنا عالق في حزام الأثير المسموم. إنّه يغرق حاليًا بسرعة عدة ملايين من الأميال في الدقيقة. حدَّد صديقنا الشاب سبب كل متاعبنا في كلمة واحدة: السمّ."

نظرنا إلى بعضنا بعضاً في صمت مذهول. لا تعليق يمكن أن يفي بوقع الموقف علينا!

قال تشالنجر: "هناك بعض الدفاع عن العقل الذي يفحصُ ويتحكَّم في مثل هذه الأعراض". من الواضح أنّني لا أتوقع أن أجدها قد وصلت إليكم عند درجة التطور التي وصلتْ فيها إليّ، لأنّه من الطبيعي أن نفترض أنَّ قوة ملكاتنا العقلية تنتجُ تأثيرات مختلفة تحمل بعض التناسب مع بعضها البعض. لكنّها موجودة بلا شك: بل إنّها موجودة في صديقنا الشاب. بعد فورة صغيرة في روحي المعنوية التي أثارت قلقي الداخلي، جلستُ وفكّرتُ في نفسي. قلتُ لنفسي: إنّي لم أشعر أبدًا أنّي مدفوع نحو نهش أيّ شخص من أسرتي من قبل.

لذلك كان الدافع الذي استحوذَ عليّ غير طبيعي. في لحظة، اكتشفتُ الحقيقة. شعرتُ بنبضي: كان أعلى بعشر خفقات أكثر من المعتاد، وكانت ردود أفعالي أكثر حدة، وأكثر تواتراً. لقد استدعيتُ نفسي الأكثر عقلانية والأسمى، بينما "جورج. إدوارد. تشالنجر"الحقيقي، وقفَ هادئًا ولا يُقهر وراء كل هذه الفوضى الجزيئية البسيطة. استدعيتهُ، لأقلْ: ليحترسْ من أيّة حيل حمقاء قد يلعبها السمّ عليّ. ثم رأيتُ أنني كنتُ السيد حقًا. يمكنني التعرف على اضطراب العقل والتحكم فيه.

أليس هذا مثالًا رائعًا لانتصار الروح على المادة؟ لأنّه كان بالفعل انتصارًا على هذا الشكل الخاص للمادة المرتبط ارتباطًا وثيقًا بالروح. كان بإمكاني القول: "الروح كانت مذنبة، لكن الشخصية جعلتها صحيحة. لذلك عندما نزلتْ زوجتي إلى الطابق السفلي، أردتُ الاختباء خلف الباب وأن أرعبها بعواء وحشي، لكنني تمكنتُ من التحكم في هذا الدافع، وقد استقبلتُ السيدة تشالنجر بكرامة واحترام. وبالمثل، كنتُ مهووسًا برغبة غاضبة في الصرير مثل بطة صغيرة لاحقًا. وبالمثل، سيطرتُ على نفسي ... عندما ذهبتُ لطلب السيارة، وجدتُ أوستن ينحني فوق المحرك وكانَ مستغرقًا في إصلاحات مختلفة. حسناً! سيطرتُ على يدي المفتوحة التي رفعتُها بالفعل، وأحجمتُ عن الانغماس معه في تجربة كانت ستدفعهُ بلا شك إلى اتباع خطا مدبرة المنزل. لقد لمستهُ على كتفه، وأمرتهُ قائلاً إنَّ السيارة ستكون عند الباب في الوقت المناسب؛ حتى أتمكن من اصطحابكم من القطار ... لكن انظرْ، في هذه اللحظة بالتحديد، أشعر بإغراء شديد لإمساك الأستاذ "سمرلي" من لحيتهِ العجوز السخيفة، ولهزّ رأسه بعنف للخلف وللأمام عدة مرات. ومع ذلك، كما ترون، أنا مسيطر تمامًا على نفسي. اسمحْ لي أن أوصيكم باتخاذي قدوة لكم.

- سوف أراقبُ الجاموس! أكّد اللورد جون.
- وسأفكّر في مباراة كرة قدم هذه! (قلتُ).
- ليس من المستحيل أن تكون على حق، تشالنجر! (همسَ الأستاذ سمرلي)، خففت جداً. أوافقُ على الاعتراف بأنَّ دوري يقودني إلى الانتقاد أكثر من النقد البناء، وأنّي لستُ جاهزًا للتحول إلى الإيمان بنظرية جديدة. لكن دعونا نواجهُ الأمر، هذا رائع بشكل خاص! ومع ذلك، إذا أشرتُ إلى الأحداث المختلفة التي وقعتْ في الصباح، وإذا أعدتُ النظر في السلوك الأحمق لرفيقي، فأنا أميلُ إلى الاعتقاد بأنَّ سمَّاً ذا طبيعة مثيرة قد يكون سببًا في ظهور الأعراض.
وبشكل فكاهي، ربَّت تشالنجر على كتف زميله.
قال: نحن نحرز تقدماً. نحن بالتأكيد نحرز تقدماً!
سألَ سمرلي بتواضع: "و ... من فضلكَ يا سيدي، ما هو رأيك في الوضع الحالي؟
- بعد إذنكم، أودُّ أن أقول بضع كلمات تتعلق بالموضوع نفسه ...
جلسَ على مكتبه، تتمايلُ ساقاه القصيرتان المقوستان تحته. وقال بسلام هذه الكلمات الرهيبة:
نحنُ نشهد حدثًاً مروعًا، وفي الوقت نفسه حدثًاً هائلاً. في رأيي، إنّها نهاية العالم.
نهاية العالم! تحولت أعيننا إلى النافذة الكبيرة.. إلى جمال الصيف الريفي هذا! تلك المنحدرات الطويلة المليئة بالخلنج! هذه المزارع غنية جدًا، هذه المنازل فخمة جدًا! وهؤلاء الرياضيون منتشرون في ملعب الجولف! نهاية العالم؟ ... بالطبع، لقد سمعنا جميعًا هذه الكلمات من قبل. لكن فكرة أنّها قد تكون لها أهمية عملية فورية، وأنّهم لم يعودوا متعلقين بتاريخ غير محدد، فتحتْ آفاقًا مرعبة وساحقة ... لقد شعرنا بالذهول في صمت، في انتظار أن يكمل "تشالنجر". لقد منحهُ حضوره المهيب ومظهرهُ الهائل، قوة شبه خارقة للطبيعة: لفترة من الزمن، اختفتْ كل سخافات الإنسان، ورأينا فيه فقط سيدًا يتجاوز الإنسانية بكثير.
ثم، مع ذلك، فكرتُ في الأمر: تذكرتُ كليهما..
انفجارات هائلة من الضحك، واعتقدتُ أنَّ انفصال العقل له حدوده، وأنَّ الأزمة لا ينبغي أن تكون خطيرة ولا ملحّة.
قال تشالنجر: "تخيّلوا حفنة من العنب". هذه الكتلة مغطاة بالعصيَّات الصغيرة بقدر ما هي ضارة. يمرُّالبستاني بمطهّر. ربما لأنّه يريد أن يكون عنبهُ أنظف، ربما لأنّه يودّ وضع عصيّات أخرى أقل ضررًا فيها، فإنّه يغرقها في السم: ومن ثمَّ لا مزيد من العصيّات! يقوم البستاني الكبير لدينا حاليًا بغمر النظام الشمسي في حمام مطهّر؛ والعصيّة البشرية، تلك الضَّمة

الصغيرة القاتلة التي تتلوى على القشرة العلوية للأرض، سيقودُ تعقيمها قريبًا إلى فناء.

حلَّ الصمت علينا. قاطعهُ رنين الهاتف.

ابتسمَ تشالنجر بغموض: "ربما تكون هذه واحدة من عصيَّاتنا تطلب المساعدة". بدأ الناس يدركون أنَّ مجرى وجودهم ليس هو النهاية الضرورية للكون.

غادرَ الغرفة. خلال غيابه الذي استمرَّ دقيقة أو دقيقتين، لم نتبادل جملة. بدا الوضع متجاوزًا الكلمات أو التعليقات كلّها.

أخبرَنا عند عودته: "كانت الخدمة الصحية في برايتون". الأعراض، لسبب أو لآخر، تتطور بشكل أسرع عند مستوى سطح البحر، وارتفاعنا سبعمائة قدم في صالحنا. يبدو أنَّ الناس قد تعلّموا أنّي المنوط به أن يُسأل عن المشكلة؛ نتيجة لرسالتي إلى التايمز! في وقت سابق، عندما وصلنا، اتصلَ بي عمدة بلدة إقليمية، سمعتموني أجيبهُ: لقد أعطاني انطباعًا بأنني أبالغ في تقدير تكلفة وجوده العزيز؛ لقد ساعدتهُ في مراجعة أفكاره.

نهضَ سمرلي، وكان ينظر من النافذة. التفتَ إلى تشالنجر، كانت يداه النحيفتان ترتعشان بانفعال.

- "تشالنجر"، (قال مستجديًا)، هذا الشيء خطير للغاية للمناقشة دون جدوى. لا تفترض أنّني أحاول أن أزعجكَ بالأسئلة التي قد أطرحُها عليك. أسألكَ إذا لم يكن هناك خطأ في معلوماتك أو في تفكيرك. ها هي الشمس مشرقة كما كانت دائمًا في سماء زرقاء. هناك الخلنج، الزهور، الطيور. هؤلاء أناس يستمتعون في ملعب الجولف. هناك مزارعون بعيدًا يحصدون. تخبرنا أننا ربما نكون على حافة الدمار، أنَّ هذا اليوم المشمس يمكن أن يتحول إلى يوم الهلاك الذي كانت تخافهُ البشرية لفترة طويلة. ولكن على ماذا تبني حكمكَ؟ على بعض الخطوط الشاذة في الطيف؟ على الشائعات التي تأتي إلينا من سومطرة؟ على الانفعالات الشخصية الغريبة التي لاحظناها في بعضنا البعض؟. ومع ذلك، فإنَّ هذا العرض الأخير ليس واضحًا، ولكن يمكنك أنتَ التحكم فيه بجهد متعمَّد. ليس عليكَ تخفيف وطأة الأمر علينا، تشالنجر. واجهْنا الموت معًا. تحدّث! أخبرنا أين نحنُ بالضبط؟ وما تعتقد أنّه آفاقنا المستقبلية.

لقد كان خطابًا جيدًا وشجاعًا، الخطاب المتوقع من رجل لم يمزق قلبه القوي كل ما هو لاذع، وكل مراوغات عالِم الحيوان العجوز.

وقفَ اللورد جون وصافحهُ.

- هذا رأيي، لا تغيّر ذرة واحدة! هيّا صرّحْ. تعال، تشالنجر، الخيار متروك لكَ لتقييم الأمر! نحنُ لسنا متوترين، لقد لاحظتَ ذلك. ولكن عندما يصادف أنّنا في زيارة عطلة نهاية الأسبوع، لنجدَ أنه تقاطعَ مع يوم القيامة، يحقّ لنا

الحصول على القليل من التوضيح. ما هو الخطر الذي نتعامل معه؟ ما هو حجمه؟ وكيف سنواجهه؟
كان يقف منتصبًا في ضوء النافذة، وكانت يداهُ مسترخيتيْن على أكتاف "سمرلي".
أنا كنتُ مستلقيًا على كرسي بذراعين، بين شفتيَّ سيجارة مطفأة. تملؤني حالة من الدهشة تركتْ آثارها جليّة للغاية على نفسي.
ربما كانت هذه مرحلة جديدة في التسمم: على أيّة حال، هذه الهذيانات المحضة قد ولّت، وخلّفت حالة ذهنية ضعيفة للغاية، وفي الوقت نفسهِ، يقظة. كنتُ متفرّجًا. لا يبدو أنَّ أيّاً من هذا يشغلني شخصيًا. لكن كان أمامي ثلاثة رجال أقوياء، وأذهلني مشهدهم!.
أخفضَ "تشالنجر" جفونهُ وضربَ لحيته، كان سيتحدث. يمكن للمرء أن يرى كم كان يتأنّى في اختيار كلماته بعناية فائقة، قبل أن ينطق بها.
بدأ بسؤال:
- ما آخر الأخبار عندما غادرتم لندن؟
أنا تحدثتُ:
- قرابة الساعة العاشرة صباحًا، كنتُ في الجريدة الرسمية. وصلت برقية "رويترز" للتو من سنغافورة، وأعلنَ أنَّ الوباء منتشر في سومطرة، وأنَّ المنارات لم تُضاء.
وقال: "الأحداث منذ ذلك الحين تطورت بسرعة كبيرة"، (تابعَ وهو يلتقط كومة البرقيات الخاصة به): أنا على اتصال وثيق بالسلطات وبالصحافة؛ لذلك يصلني الخبر من جهات مختلفة. في الواقع، يصرُّ الجميع بشدة على أن أذهب إلى لندن، لكنّي لا أرى كيف سأساعدها؟.
وفقاً للتقارير، فإنَّ تأثير السم يبدأ بالإثارة العقلية. كانت هناك أعمال شغب هذا الصباح في باريس. يقولون إنّها كانت شديدة العنف. عمال مناجم ويلز على وشك الإضراب. بقدر ما يمكننا الوثوق بالأعراض المعلنة، فإنَّ هذه المرحلة من الإثارة، والتي تختلف اختلافًا كبيرًا حسب الأجناس والأفراد، تتبعُها نشوة معينة تخلقُ وضوحًا ذهنيًا. أعتقدُ أنّني لاحظتُ بعض العلامات على صديق شاب، ولكن بعد فسحة زمنية غير محددة، يتسبب السمّ في غيبوبة، ويدفع ضحيَّته إلى الموت. علَّمني بحثي في علم السموم، أنّه يجب أن تكون بعض السموم النباتية ..."
اقترحَ سمرلي: "داتورا".
-إذا أردتم! (صرخَ تشالنجر): إنَّ إعطاء اسم لهذا العامل السام هو إثبات الدقة العلمية. لكَ يا عزيزي "سمرلي" هذا الشرف! سيذهب بعد وفاتهِ، واحسرتاه! ولكن مايزالُ فريدًا من نوعه، فقد عمدْنا إلى تعميد المدمِّر الشامل، المطهر الخاص بالبستاني العظيم. لذلك، يمكن اعتبار أعراض "داتورون" تلك التي وصفتُها للتو. يبدو لي مؤكدًا أنَّ هذا الطاعون سينتشر

في جميع أنحاء العالم، وأنَّ الحياة كلها ستتوقف بعد مروره، لأنَّ الأثير هو وسيط عالمي. حتى الآن، كان صعبَ المراس في الأماكن التي هاجمَها، لكنَّ الاختلاف لم يكن سوى في بضع ساعات. يشبهُ داتورون مدًّا صاعدًا يغطي ساحلًا رمليًا، ثم آخر. يتماوجُ هنا وهناك في تيارات غير منتظمة حتى يُغرق في النهاية كل شيء. هناك قوانين تعملُ وفقًا لعمل وتوزيع الداتورون: سيكون من المثير للاهتمام دراستها، إذا كان لدينا الوقت!

(نظرَ إلى برقيَّاته): كانت الأجناس الأقل تطورًا هي أول من خضعَ لتأثيره. تحدثُ أشياء محزنة في إفريقيا، ويبدو أنَّ السكان الأصليين الأستراليين قد تمَّ القضاء عليهم بالفعل. يبدو لي أنَّ أعراق الشمال قد قاومت بشكل أفضل من أعراق الجنوب. لنرَ: هذا خطاب مؤرَّخ في مرسيليا، وصلَ هذا الصباح في التاسعة وخمسٍ وأربعين دقيقة، سأقرأه لكم بالحرف:

“التحريض المحموم طوال الليل في "بروفانس". " شغب مزارعي الكروم في "نيم". "الانقلاب الاشتراكي في "طولون".

وباء مفاجئ مصحوب بغيبوبة، هاجمَ السكان صباح اليوم."برقيات الطاعون".

"عدد كبير من القتلى في الشوارع، تعطّل الأعمال، الفوضى عامة ".

ووردَ بعد ساعة من المصدر نفسه: "معرضون للإبادة الكاملة. الكاتدرائيات والكنائس معبّأة. عدد الموتى يفوقُ عدد الأحياء. إنّه أمر لا يمكن تصوره وفظيع. الموت يضرب بلا ألم، لكنّه يضرب بسرعة وبلا هوادة ".

تلقيتُ برقية مماثلة من باريس، لكنَّ تداعيات الأمر لم تكن حادة بعد.

يبدو أنَّ الهند وبلاد فارس قد أزيلتا من الخريطة. تمَّ القضاء على السكان السلافيين في النمسا، بينما "التوتونيونين" بالكاد تأثروا.

بشكل عام، يبدو أنَّ سكان السهول والشواطئ، على الأقل وفقًا لمعلومات شحيحة لديَّ، قد عانوا من آثار السم في وقت أبكر من سكان الجبال أو سكان الداخل. يسبّب ارتفاع طفيف عن الأرض اختلافات كبيرة. إذا كان هناك ناجٍ من الجنس البشري، فلا شكَّ أنّه سيُعثر عليه مرة أخرى على قمة جبال "آرارات"!.

قد تُثبتُ رابيتُنا الصغيرة أنّها جزيرة مؤقتة وسط محيط من الكوارث. ولكن بالنظر إلى معدل وتيرة الزحف، فإنَّ بضع ساعات تفصلنا عن الغرق جميعاً.

مسح اللورد جون روكستون جبهته.

قال بصوت أجوف: "ما يُدهشني هو أنّه يمكنكَ الجلوس بلا حراك، والابتسامة بهذه الكومة من البرقيّات في يدك. رأيتُ الموت عن قرب مثل أيّ شخص آخر. لكنَّ الموت الشامل ... إنّه فظيع!

أجابَ تشالنجر: "بالنسبة للابتسام، تذكَّر أنّني مثلكَ، استفدتُّ من التأثيرات المرتفعة لسمّ الأثير. ولكن فيما يتعلق برعبكَ من الموت الشامل، دعني

أخبركَ: إنّه مفرط.
إذا أبحرتَ بمفردكَ في زورق تجديف إلى وجهة غير معروفة، فقد ينخسفُ قلبكَ في أعماقك: ستقهركَ العزلة والشك. ولكن إذا تمَّت رحلتكَ على متن قارب جيد، وستصطحبُ أقاربك أصدقاءكَ معك، فسيكون لديكَ شعورــ على الرغم من وجهتكَ غير المؤكدة ــ بأنّه لديكَ على الأقل مغامرة واحدة مشتركة مع أحدهم، وفي الوقت نفسه من شأنها أن تجعل قدركَ في النهاية مع أصدقائكَ المقرَّبين.
يمكن أن يكون الموت بمفردكَ أمرًا فظيعًا، لكنَّ الموت الشامل الخالي من المعاناةــ مثل الموت الذي يقتربُ ــ ليس في رأيي سببًا للخوف. في الحقيقة، سأفهُم بشكل أفضل شخصًا مذعورًا من فكرة النجاة من كل العلماء، رجال مشهورين، أو رموز أمجاد العالم الذين كانوا سيهلكون!
على غير العادة، كان "سمرلي" يومئ بالموافقة على منطق شقيقهِ العالِم.
- ماذا تقترحُ علينا أن نفعل؟ (سألهُ).
- أن نتناول الغداء! (ردَّ تشالنجر).
في الواقع، دوَّى في أنحاءِ المنزلِ جميعِها أصداءُ الجرس.
"لدينا طبَّاخة تتفوق على نفسها في صنع العجّة وشرائح اللحم. لكن لا يسعنا إلا أن نأملَ ألا يكون قد أصابها اضطراب كوني، انتقصَ من قدراتها الممتازة.
وبالمثل، لديَّ "شارزبيرغر ٩٦" يجبُ أن يُنقذ، بكل ما أوتينا من قوى متّحدة وجادة، خشية أن يُهدر نبيذ معتق عظيم بصورة مُهينة.
نهضَ بجسده الثقيل عن المكتب، الذي كان قد أعلنَ للتو هلاك الكوكب المحتوم.
" لنذهبْ! (أخبرَنا). إذا كان مايزالُ لدينا القليل من الوقت المتبقّي لنا، فلننفقهُ على الأقل بطريقة معقولة ولطيفة.
وفي الواقع، كانت وجبتُنا مبهجة. بالطبع، لم نتمكن من نسيان وضعنا المزري تمامًا. استمرَّ قرب نهاية العالم يلوّح في خلفية أفكارنا.
لكن حتمًا كي تهابَ الموت عندما يعرضُ نفسه أمامك، لا يصحّ ألا تتاح لك الفرصة أبدًا للنظر إليه في وجهه! ومع ذلك فقد كان مألوفًا لنا جميعًا. أمَّا بالنسبة للمضيفة، فقد اعتمدتْ بثقة على زوجها، وكانت سعيدة للغاية بالسير على خطاه لتهتمَّ بالاتجاه الذي يسير فيه. المستقبل يخصُّ القدر. لكن الحاضر كان لنا، عشناهُ كرفاق مثاليين، بمرح. كما قلتُ، كانت عقولنا صافية بشكل غير عادي: حتى إنني في بعض الأحيان كنتُ أشعر بالإثارة. كان "تشالنجر" رائعًا! لم أدرك أبدًا مدى ضخامة وجرأة وقوة الرجل في التفكير. أثارَ "سمرلي" غيظهُ بجوقة من الانتقادات اللاذعة. كنتُ أنا واللورد "جون" نضحكُ على لعبتهما.

والسيدة "تشالنجر" قد وضعتْ يدها على ذراع زوجها؛ لتهدئة خوار الفيلسوف.
الحياة، والموت، والقدر، والمصير البشري، كانت هذه هي الموضوعات التي نوقشت خلال هذه الساعة التي لا تُنسى، ساعة مذهلة!، احتدَّت بالنقاش حول الحقيقة.
أثناءَ تقديم الغداء لنا، شعرتُ فجأة في رأسي بالنشوة، وبالوخز في أطرافي؛ لفكرة أنَّ تيار الموت غير المرئي يتصاعد ببطء، ببطء من حولنا.
لاحظتُ أنّه ــ ذات مرة ــ رفعَ اللورد جون يدهُ فجأة إلى عينيه، وفي مناسبة أخرى تراجعَ "سمرلي" قليلاً في كرسيّه. كان لكلٍّ منّا نفسٌ نتنفّسه، مشحونًا بقوىً غامضة.
ومع ذلك كانت لدينا روح سعيدة ويقظة. سرعان ما أحضرَ أوستن السجائر. عندما كان على وشك الانصراف، ناداهُ سيّده:
"أوستن!"
-نعم يا سيدي؟
- شكراً لك على خدمتكَ الطيبة والمخلصة.
مرَّت ابتسامة على وجه الخادم النَّكِد.
- لقد قمتُ بواجبي فقط، سيدي.
- أنا أنتظر نهاية العالم اليوم، أوستن.
- حسناً سيدي. ما الوقت يا سيدي؟
- لا أعرفُ، أوستن. قبل حلول المساء.
- جيد جداً سيدي.
ألقى "أوستن" الصَّموت التحية، وتراجعَ خارجًا.
أشعلَ تشالنجر سيجارة، وقرَّبَ كرسيّه من كرسي زوجته، وأخذ يديها برفق.
- أنتِ تعرفين كيف تسير الأمور يا عزيزتي. شرحتُ لهم أيضاً، لأصدقائنا. أنتِ لستِ خائفة، ألستِ كذلك؟
- ألن تؤلم يا جورج؟
- ليسَ أكثر من ضخّ الغاز عند طبيب الأسنان. في كل مرة تأخذينه، تدخلينَ في موتة عملية.
- لكنّه شعور جميل!
- يمكن أن يكون الموت أيضًا ممتعًا! لا يمكن لآلة الجسد، المهترئة إلى حد كبير، تسجيل هذا الانطباع، لكنّنا نعرف المتعة العقلية التي تنطوي عليها المنامات أو الغيبوبة.
ربما تبني الطبيعة لنا بابًا رائعًا، مختبئًا خلف ستار يتلألأ بالضوء، للسماح لنا بدخول حياة جديدة بأرواح مندهشة. في أعماق كل تجاربي، وجدتُ

باستمرار الحكمة واللطف. إذا كان الإنسان المذعور يحتاجُ إلى لمسة حانية، فمن المؤكد أنّه يتخيل أنَّ الانتقال من حياة إلى أخرى محفوف بالمخاطر...

لا، سمرلي، نظرتكَ المادية ليست لي: أنا، على الأقل، شيءٌ أسمى من أن ألخِّص حياتي في شكل مكونات مادية فقط:

علبة أملاح، وثلاثة دلاء ماء.

هنا هنا ...

ضربَ رأسهُ الكبير بقبضته الضخمة المشعرة.

"يوجدُ شيء هنا يستخدم المادة، لكنّه ليس منها. شيء يمكن أن يدمّر الموت، ولكنَّ هذا الموت لا يمكن أن يدمّره".

قاطعهُ اللورد جون: "بما أنّنا نتحدث عن الموت، فأنا مسيحي إلى حدٍّ ما. لكن يبدو لي أنَّ عادات أسلافنا كانت طبيعية جدًا: فقد دُفِنوا بفؤوسهم وأقواسهم وسهامهم، وما إلى ذلك، كما لو كانوا سيعيشون حياة جديدة مماثلة لتلكَ التي عاشوها...

نظرَ حوله بشيء من الخجل، قبل أن يضيف:

"أتساءلُ عمَّا إذا كنتُ سأشعر براحة أكبر بيقين من أن يرافقني إلى القبر "اكسبريس ٤٥٠" القديمة، وكل ما يلي: بندقية قصيرة بحامل مطاطي، وحزام كتف من الخراطيش. بالطبع، خيال مجنون! ومازال. ماذا عنكَ يا أستاذ سمرلي؟"

أجابَ سمرلي: "حسنًا، بما أنكَ سألتَ عن رأيي، فإنَّ فكرتكَ تصدمني في أنّها ارتداد لا يمكن دَرْؤهُ للعصر الحجري، أو حتى قبل ذلك.

أنا من القرن العشرين، وأودّ أن أموت مثل رجل متحضّر عاقل. لا أعرف ما إذا كنتُ خائفًا من الموت أكثر منكم يا رفاق. مهما كان الأمر، أنا عجوز وقد لا أملكُ وقتاً أطول للعيش. ومع ذلك، فإنَّ طبيعتي كلها تقف ضد حقيقة أنّني أستطيع البقاء، وأنتظر الموت مثل الخراف تحت سكّين الجزار. هل من المؤكد، تشالنجر، أنّنا ليسَ بوسعنا فعل شيء؟

- لإنقاذنا، نعم! ردَّ تشالنجر. من ناحية أخرى، فإنَّ إطالة حياتنا لبضع ساعات، وبالتالي رؤية تفاقم هذه المأساة قبل أن نتورط فيها بالفعل، قد يكون في قدرتي ذلك. فإنّي اتّخذتُ بعض الاحتياطات ...

- الأوكسجين؟

- نعم. الأوكسجين.

- ولكن ما تأثير الأوكسجين على التسمّم بالأثير؟ بين جدار من الطوب والغاز لا يوجد فرق أكبر من الأكسجين والأثير. إنَّها أوساط مختلفة للمادة. لا يمكنها التأثير على بعضها البعض. تعالَ، تشالنجر، لن تدافع بجدية عن مثل هذا الافتراض!

"عزيزي سمرلي، من شبه المؤكد أنَّ هذا السم الأثير يتأثر بالعوامل المادية. نراهُ في طرق انتشار الوباء. بداهةً لم نفكر في الأمر، لكن الحقيقة

موجودة بلا شك. ومن هنا فإنَّ رأيي الراسخ أنَّ غازًا مثل الأكسجين، الذي يزيدُ من حيوية الجسم البشري ومرونته، سيكون على الأرجح قادرًا على تأخير عمل ما أطلقَ عليه داتورون. قد أكون مخطئاً، لكنّني أؤمنُ بصحة تفكيري.

قال اللورد جون: "على أيّة حال، إذا كنّا سنجلس ونمصُّ من هذه الزجاجات كما يفعل الأطفال، فأنا أفضّل ألا أفعل."

- لن تكون هناك حاجة لذلك! ردَّ تشالنجر. لقد قمنا بالترتيبات. أنتم مدينون لزوجتي بذلك. بالمراتب والورق المطلي، سيكون مخدعُها محكم الإغلاق قدر الإمكان.

- هيّا، تشالنجر، لن تقول إنّهُ يمكنكَ عزل الأثير بورق مصقول؟

- حقًا يا صديقي، لديكَ موهبة في تفويت النقاط الهامة! لا يجبُ أن نُبقي أنفسنا بعيدين عن الأثير الذي تسبّبنا به في الكثير من المتاعب. هذا للحفاظ على الأكسجين. أعتقدُ أنّه إذا تمكنَّا من ضمان وجود جو شديد الأكسجين في نقطة معينة، فيمكننا الحفاظ على حواسّنا. كان لديَّ زجاجتان، وأحضرتم لي ثلاثاً أخريات. إنهُ ليس كثيرًا، لكن مهلاً، فسَيفي ذلك بالغرض.

- إلى متى تستمر؟

- ليست لديَّ أدنى فكرة. لن نفكّكهم حتى تصبح الأعراض لدينا لا تطاق. ثم نوزّع الغاز باعتدال في الغرفة حسب احتياجاتنا. كل هذا يتوقف على أنهُ: ربما سيكون لدينا ما يكفي لبضع ساعات، أو ربما لعدة أيام. على أيّة حال، سوف نشاهد تدمير العالم. هذا كل ما يمكن فعله لتأخير مصيرنا. على الأقل نحنُ الخمسة سنخوضُ مغامرة فريدة للغاية، لأننا مدعوّون لتشكيل الحرس الخلفي لعرقنا البشري في مسيرته نحو المجهول.

هل تتفضَّل بمساعدتي في تحضير الزجاجات؟ لديَّ إحساس أنَّ الجو يزداد ثقلاً إلى حدٍّ ما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغرق

كانت الغرفة- التي قدِّر لها أن تكون مسرحًا لخوض مغامرتنا التي لا تنسى- غرفة نوم نسائية بهيجة، مساحتها تتراوح بين أربعة عشر أو ستة عشر قدمًا. وفي إحدى جوانبها، فُصلتْ غرفة تبديل الملابس -الخاصة بالبروفيسور- بستارة مخملية حمراء عن غرفة نوم كبيرة. كانت الستارة ماتزالُ مسدلة على غرفة النوم، ولكن "البدوار" وغرفة الملابس يمكن اعتبارهما غرفة واحدة مخصصة لأغراض مغامرتنا.

أحيط أحدُ الأبواب وأُطرُ الشرفات بالورق المصقول، الذي ثُبِّت بعناية فائقة لضمان الإغلاق المرجو. أمَّا فوق الباب الآخر المطلّ على الردهة أعلى السلم، فقد جُهّزت كوَّة بحبل، لنتمكّن من خفضها عندما تصبح الحاجة للتهوية مُلحَّة. كما وُضعَت في كل زاوية شجيرة كبيرة في إناء.

-"كيف سنتخلّص من ثاني أكسيد الكربون الزائد دون هدر الأوكسجين؟ إنّها مسألة حساسة بقدر ماهي ضرورية".

قال "تشالنجر"، وهو ينقّل بصره بين أسطوانات الأوكسجين التي وضعوها جنباً إلى جنب في محاذاة الجدار:

"لم نُمنحْ وقتاً أطول للاستعداد، وإلّا لكانَ بإمكاني تركيز كل نقاط قوى ذكائي لإيجاد حلول أكثر دقة، لكن بالنظر إلى الظروف؛ سنستعدّ بأفضل ما لدينا. وعليه ستفي الشجيرات ببعض الأغراض هنا. وكذلك هناك أنبوبان جاهزان للعمل على الفور. لذا لن نُفاجأ. ومن ناحية أخرى، من الأفضل ألا نبتعد عن الغرفة، حيث يمكن أن تكون الكارثة وحشية ومفاجئة".

كان هناك نافذة كبيرة لكنّها واطئة فُتحت على الشرفة. حيثُ كانت تطلّ على المشهد نفسه الذي أعجبنا من المكتب.

ألقيتُ نظرة على الخارج، فلم ألحظ من مرمى بصري أيّة علامة من علامات الفوضى في أيّ مكان.

أسفل ناظريَّ، تتعرَّج الطريق بامتداد التل، وهناك عربة أجرة قديمة آتية من المحطة- واحدة من أولئك اللواتي نجونَ من عصور ما قبل التاريخ، والتي لا يمكن العثور عليها إلا في قرى بلادنا- تتسلّق التلة ببطء.

وفي نقطة أوطأ قليلاً، هناك مربية أطفال تدفعُ عربة فيها طفل، وبيدها الأخرى تمسكُ طفلاً آخر. أضفى ضبابٌ أزرقُ، فارَّاً من أكواخ ريفية محيطة، ملامح للاستقرار والراحة المنزلية على المشهد بالكامل. لم يكن في أيِّ مكان (سواء في السماء الزرقاء أو على الأرض المضاءة بنور الشمس) أيُّ إنذار بكارثة.

عادَ المزارعون إلى حقولهم مرة أخرى، ومايزالُ هناك لاعبو الغولف، يستكملون مسارهم دون عجالة.
وكانَ رأسي مهتاجًا لهذا الاضطراب، وأزعجتني أعصابي المشدودة، فكان عدم اكتراث هؤلاء الناس مذهلاً!.
"هناكَ من يبدو أنّه لا يشعر بآثار أيِّ مرض!". قلتُ للّورد "جون"، مشيراً إلى حيث ملاعب الغولف.
- هل لعبتَ (غولف) من قبل؟!
- لا. لم ألعبْ من قبل.
- حسناً! عزيزي، عندما تجرّب أن تلعب، سوف تتعلم أنّه بمجرد الدخول إلى ملعب ما، فلن يتخلى لاعب غولف حقيقي عن موقعهِ حتى لو نزلت الساعة. "أوه! الهاتف مرة أخرى"
من آن لآخر، أثناء وبعد الغداء، كان يُستدعى البروفيسور من قِبل الجرس اللحوح.
فكان يُخبرنا بالأخبار كما يُبلّغ بها في بضع جمل مقتضبة على نحو فظ. لم تسجَّل مثل هذه التفاصيل المرعبة من قبل في تاريخ الأرض.
تسللت الحلكة الجامحة من الجنوب إلى الشمال كفيضان لأمواج الموت. لقد أصابَ مصر هذيان الحمّى، وهيَ الآن في غيبوبة.
سادَ الصمت في إسبانيا والبرتغال، بعد نوبات جنون وحشي جنحَ إليه كل من رجال الدين والأناركيين في حربهم الضارية.
من أمريكا الجنوبية، لا مزيد من الأخبار!
أمَّا في أمريكا الشمالية، فقد مزَّقت القتالات الدموية -السوداء والبيضاء- الولايات الجنوبية قبل أن تخضع للسمّ.
في شمال ولاية "ماريلاند"، لم يُلحظ أيُّ تأثير بعد، في كندا بالكاد يكون ملحوظاً. وكلّ من بلجيكا، هولندا، الدانمارك وقعوا تحت سطوته.
كانت الرسائل اليائسة تطيرُ من كل مكان إلى الأوساط العلمية الكبرى، إلى الكيميائيين، إلى الأطباء ذوي الشهرة العالمية. وكذلك غُمرَ الفلكيون بالاستفسارات. ولكن لم يكن في وسعهم شيء ليفعلوه.
كان الأمر شامًلا العالم بأسره، ومتجاوزًا نطاق معرفتنا البشرية أو سيطرتنا. فكان الموت- غير المؤلم ولكن الذي لا مفرَّ منه- موتًا للصغير وللكبير، للضعيف وللقوي، للثري وللفقير، وكان موتًا لايرحم بدون أيّ أمل أو إمكانية للهرب.
كانت هذه هيَ الأخبار التي أوصلَها إلينا الهاتف في رسائل مبعثرة ومشتتة.
لقد عرفت المدن الكبرى بالفعل المصير الذي ينتظرها. وبقدر ما استطعنا حاولنا أن نتَّحد سويًا، ونستعد لمواجهته بكل نبل وإذعان.
ورغمَ ذلك، بدا لاعبو الغولف والفلاحون كأنّهم حملان تتملّص من طيف السكين. بدا الأمر مذهلاً!. لكن كيف يمكنهم أن يعرفوا؟ ... فقد غزت

الكارثة الأرض بخطوات عملاقة. أما كان من شيءٌ في جريدة الصباح لينبّههم؟ والآن نقول: كان بالإمكان، إلا أنَّها الثالثة بعد الظهيرة.
وفي لحظات، بدا أنَّ الشائعات انتشرت، فلم يمضِ وقت طويل قبل أن نرى الفلاحين يغادرون الحقول، ومن ثمَّ تركَ لاعبو الغولف لعبتهم وعادوا إلى النادي. كانوا يركضون كما لو كانوا يحتمون من هطول المطر، وفي أذيالهم يجروّن الغلمان المساعدين لهم في الملعب.
لكنْ آخرون استمروا في اللعبة.
وهناك عادت المربّية أدراجها وهي تدفع عربة الطفل مهرولة لتصعد التل مرة أخرى. ولمحتُ يدها فوق جبينها. وتوقفت العربة، والحصان المتعب كان يستريح مطأطئاً رأسه بين قائمتيْه الأماميّتين.
فوقنا، سطعت سماء الصيف الزاهية، صافية تمامًا باستثناء غيوم بيضاء قطنية متناثرة في الأفق البعيد.
إذا كانَ الجنس البشري سيموتُ حقًا اليوم، فقد نَعِم بفراش الموت المهيب. ولكن عذوبة الطبيعة هذه، جعلت الهلاك الشامل الوشيك أكثر رعبًا، وأكثر استحقاقًا للشفقة.
أحقًّاً الأرض التي كانت ملاذَنا الآمن، أبهذهِ السرعة والقسوة، سنُطرد منها!
فلنقلْ أنَّ الهاتف رُنَّ مرة أخرى، وبغتة صاح "تشالنجر" من الردهة:
"مالون!" صاحَ."أنت المطلوب"
هرعتُ إلى الهاتف، فكان "مكارديل" يتحدث من "لندن".
"أهذا أنتَ، سيد مالون؟". صاحَ بصوته المألوف من الناحية الأخرى. " سيد مالون، هناك أحداث رهيبة في لندن. بحقّ السماء، أسأل البروفيسور "تشالنجر" إذا أمكنهُ اقتراح أي شيء يمكن القيام به؟"
"لا يمكنهُ اقتراح أيّ شيء سيدي". أجبتُ.
"إنّه يعتبر الأزمة عالمية وحتميّة. لدينا بعض الأكسجين هنا، لكنَّ مصيرنا لن يتأخر سوى سويعات".
"أكسجين!". صاح بصوتهِ المعذَّب.
"لا نملكُ وقتًا لنحصل على أيّ شيء. لقد غرقَ المكتب في حالة من الفوضى العارمة منذ مغادرتكَ في الصباح. فالآن نصف طاقم التحرير فقدوا الوعي بالفعل.
أنا بدوري أشعرُ بإرهاق مُثقِل. من نافذتي أستطيع أن أرى الناس مستلقين في كومة في شارع "فلييت". توقفتْ حركات المرور كلها. وفقاً لما وصلَ لنا في البرقيات الأخيرة. فالعالم بأسره"..
تدريجيًا انكتمَ صوته. واختفى فجأة. وعلى الناحية الأخرى من الخطّ، سمعتُ صوتًا لارتطام مكتوم، كما لو أنَّ رأسه قد سقط على المكتب.
"سيد مكارديل" صحتُ. "سيد مكارديل"

لم يحرْ أيَّ جواب، فأدركتُ أنني لن أسمع صوتهُ مرة أخرى.
وفي تلك الأثناء، بمجرد أن خطوتُ خطوة واحدة إلى الوراء مبتعدًا عن الهاتف، سقطتْ فوق رؤسنا تلك الطامة!
كان الأمر كما لو أنّنا نغتسل. يهطل الماء فوق أكتافنا، فتغمرنا بغتة أمواج متدحرجة. بدا أنَّ هناك يداً مرئية، قد أحكمتْ قبضتها بهدوء حول حلقي، وتسحب- بلطف- الحياة من جسدي. كنتُ واعيًا كليًا للثقل الهائل على صدري، ولوجود أنشوطة محكمة حول رأسي، ولذلك الطنين العالي في أذني، ولوميض ساطع بهرَ عيني.
ما كان أمامي مفرٌّ سوى أن أتشبَّث بدرابزين الدرج.
وفي اللحظة نفسها، وصلني صوت تحطّم، ونخير جاموس جريح، كان "تشالنجر" يركض نحوي، كان منظرهُ رهيباً! كان وجههُ أحمرَ دمويًا، وعيناهُ محتقنتيْن، وشعره مشعث.
كان يحمل زوجته الصغيرة، فاقدة لكل وعي بما يحدث حولها، على كتفه. وغير مدّخر لأيّ جهد، صعدَ بها الدرج، متعثرًا في خطواته وبالدرج، لكنّه شقَّ طريقه عبر الجو المسموم ليصلَ إلى الملاذ الآمن المؤقت.
لذا بمجرَّد أن رأيتُ ما بذلهُ، هرعتُ أيضًا إلى الدرج، تعثرتُ، سقطتُ، وأمسكتُ بالدرابزين، حتى وصلتُ إلى أعلى الدرج عند السلم العلوي.
كانت أصابع اللورد جون الفولاذية تقبض على طوق سترتي، وفي اللحظة التالية كنتُ مطروحًا على ظهري، عاجزًا عن الكلام والحركة، على سجادة غرفة "البدوار". كانت السيدة "تشالنجر" مستلقية بجانبي، وكان "سمرلي" متكوماً على نفَسه في كرسي بجوار النافذة، على الأرجح رأسهُ بين ركبتيه تقريبًا.
كما لو كنتُ في منام، رأيتُ "تشالنجر"، يزحف - كخنفساء ضخمة- ببطء على الأرض نحو أسطوانات الأكسجين، ثم سمعتُ هسهسة خافتة من تسرّب الغاز.
استنشقَ "تشالنجر" منها جرعتيْن أو ثلاث جرعات بكل قوة رئتيه، وصرخَ مبتهجًا:" إنَّها تعمل! منطقي كان صحيحًا".
كان على قدميه مرة أخرى، بحيويّته وقوته. أخذ أنبوبًا وهرع إلى زوجته وأمسكَ بها ووضع الأنبوب على وجهها.
بعد ثوانٍ قليلة، تأوَّهتْ، وتململتْ، ومن ثّم جلستْ. فالتفتَ إليّ وشعرتُ بدفء الحياة يزحف عبر شراييني.
أوعزَ عقلي إليَّ: (أنَّ ذلك كان مجرد فترة راحة بسيطة)، أنَّ هذا لم يكن سوى فترة راحة قصيرة، ومع ذلك بدت كل ساعة من الوجود لا تقدَّر بثمن، مهما تحدّثنا بلا مبالاة عن قيمتها.
لم أشعر أبدًا بابتهاج حسّي أكثر ممَّا شعرتُ به عندما عادت إليّ أنفاسي، واستطعتُ اجتراع بعض الهواء. تخفَّف الثِقل من على رئتي، وسقط الرباط

الخانق من فوق جبيني، وغُمرتُ بشعور لطيف بالسكينة، وبالراحة الفاترة الرقيقة: شيء مثل الرفاهية التي يشوبُها اللطف. ومن مرقدي، رأيتُ "سمرلي" تُبثُّ في أوصالهِ الحياة بالعلاج نفسهِ. ثم لم يمضِ وقت أطول حتى أتى دور اللورد "جون".

قفزَ على قدميه، ومدَّ يده لي لأقفَ، بينما حمل "تشالنجر" زوجته، ووضعها على الأريكة.

-"أوه، جورج، يؤسفني أنكَ أعدتني!". همستُ، بينما أمسكتُ بيده:" كنتَ محقًا عندما أخبرتَني أنَّ لعبور باب الموت، يلزمني أن أتجاوزَ ستائرَ بألوان زاهية متلألئة! بمجرد اختفاء الشعور بالاختناق، صارَ كل شيء جميلاً وهادئاً بشكل لا يُوصف. لماذا أعدتَني إلى هنا؟"

-"لأنّني أتمنى أن نعبرَ ذلك الممر معًا. لقد عشنا جنباً إلى جنب لسنوات عديدة!، ألن يكون محزنًا أن نتفارق عند لحظة الرحيل؟."

لوهلة- في نبرة صوتهِ الحانية- تلمَّستُ مسحة من "تشالنجر" جديد، لم يبدُ كالمتغطرس، أو المتفاخر ذاكَ الذي أزعجَ أبناء جيله، وأساءَ إليهم بالتناوب.

إنمّا هناك، عندما لوّحَ لنا شبح الموت في الأفق، طفتْ أعماق "تشالنجر" الدفينة، فظهرَ الرجل الذي فازَ بحب امرأة ذات يوم، واحتفظ بها وبذلك الحب.

ثم فجأة، عادَ إليه مزاجهُ القديم، وصار قائدُنا مجددًا.

"وحدي من بني البشر، رأيتُ وتوقعتُ هذه الكارثة!". قال بصوت تملؤهُ بهجة النصر العلمي.

"وأنتَ عزيزي سمرلي، أثقُ في أنَّ شكوككَ الأخيرة (حول غموض خطوط الطيف) قد انتهت الآن. وأنكَ لن تجادلني بعد الآن حول رسالتي في "التايمز"، وأنها استندتْ إلى وهم".

لأول مرة، لم يرقَ رفيقنا المشاكس إلى مستوى التحدي. لم يكن باستطاعتهِ سوى أن يجلس مبهور الأنفاس، يمطّ أطرافه الرفيعة على طولها، كأنّه يطمئن أنه مازالَ على قيد الحياة.

سارَ "تشالنجر" متجاوزًا أسطوانة الأوكسجين، ومن ثمَّ انحسرت قوة الهسهسة تدريجياً حتى وصلتْ إلى الصمت الهادر، وبعدها قال:

"فلنحفظ احتياطي الغاز لدينا. فالجوّ في الغرفة الآن مُشبع بالأكسجين بشكل ملحوظ، ويمكن أن أرى أنَّ لا أحد منّا يعاني من أعراض مُقلقة. فقط يمكننا أن نجرّب لنحدّد الكمية المضافة إلى الهواء ليُبطلَ مفعول السمّ. لنرَ كيف سيحدث ذلك؟".

جلسنا لمدة خمس دقائق صامتين، يفتكُ بنا توتر أعصابنا، ونتأمل شعورنا. كنتُ قد بدأتُ للتو أتوهّم أنّي أشعر بالأنشوطة معقودة حول صدغي مجددًا، عندما صرخت السيدة " تشالنجر" بأنّها ستفقد الوعي.

فاستدارَ إليها زوجها، وبيده أنبوب الغاز ليمنحها المزيد.

"في أيام ما قبل العلم، كانت كل غوَّاصة تحمل فأرًا أبيضَ، فجسمهُ الدقيق يستشعر علامات وجود جو فاسد قبل أن يتمكن أحد من إدراكه. أنتِ، يا عزيزتي، ستكونينَ فأرنا الأبيض. قمتُ بزيادة تدفق الغاز. تشعرين بتحسن، أليس كذلك؟"

-"نعم، أشعرُ بتحسن".

-"على الأرجح، توصّلنا إلى الحسبة الدقيقة. فعندما نعرفُ بالضبط الكمية التي نحتاج إليها، سنتمكن حينها من حساب المدة المتبقية لنا في الحياة. لسوء الحظ، أثناء إنعاش أنفسنا، استهلكنا بالفعل كمية كبيرة من الأسطوانة الأولى."

-" أيًّا كان"، قالها اللورد "جون"، بينما كان يقف بجوار الشرفة، واضعاً يديه في جيبه.

" إذا كانَ لزامًا علينا أن نموت، فما فائدة التشبّث بالبقاء؟ أنتَ لا تظنّ أنَّ هناك أيّة فرص لنا؟"

ابتسمَ "تشالنجر"، وأومأ برأسه.

-"جيد، ولكن ألا تعتقد بعد ذلك أنّه سيكون هناك كرامة في القيام بالقفزة بأنفسنا، وألا ننتظر أن يُدفع بنا؟ نظرًا لعدم وجود ما نأملهُ؛ أقترحُ أن نتلو صلواتنا، وتغلقُ الغاز، ونفتح النافذة".

-"لمَ لا؟". قالت السيدة "تشالنجر" بشجاعة.

اللورد "جون" على حقّ بالتأكيد، جورج! سيكون من الأفضل أن تفعل كما قال".

ارتفعَ صوت "سمرلي" الحاد:" أعترضُ بشدة."

عندما يكون علينا أن نموت، دعْنا نموت بكل الصور! لكنَّ استباق الموت عمدًا، يجعلني أحمق لا مبرَّر لحمقهِ.

-"ما رأيُ صديقنا الشاب هنا؟". سألني "تشالنجر".

-أعتقدُ أنّه علينا البقاء حتى النهاية.

قال: "أنا أؤيد هذا الرأي بقوة".

صاحت السيدة "تشالنجر": "حسناً، جورج، إذا اعتقدتَ ذلك؛ فأنا أيضًا أعتقدُ ذلك".

قال اللورد جون:" حسنًا، كنتُ فقط أطرح الحُجة. إذا كنتم جميعًا تريدون رؤية الأمر إلى النهاية؛ فأنا معكم إذن. إنَّها تجربة مميزة. لا نزاع في ذلك!".

"لقد استمتعتُ بحصَّتي من المغامرة في حياتي... وحظيتُ مثل الجميع ببعض المشاعر الطيبة. إلا أنّني في نهاية المطاف الآن!"

" الذي يضمنُ لكَ استمرارية الحياة." قال "تشالنجر"

-"ادّعاء فارغ!. "صاح "سمرلي"

رمقهُ "تشالنجر" بنظرة توبيخ صامتة، ثم كرَّر بصورة وعظية.

"ما يضمنُ لك استمرارية الحياة! لا يمكن لأحد أن يقول ماهي الاحتمالات لرصد ما سوف نسمّيه مستوى الروح على مستوى المادة. حتى بالنسبة لروح فظّة (هنا نظرَ إلى سمرلي). وبينما نحنُ أنفسنا من المادة، فنحنُ الأنسب لرؤية الظواهر المادية، ولإصدار القوانين عليها. وذلك وحسب عبر البقاء على قيد الحياة. خلال تلكَ الساعات القليلة الإضافية، يمكننا أن نأمل في أن تأخذنا إلى وجود مستقبلي مفهوم وواضح للحدث الأكثر روعة في العالم، أو في الكون على حدّ علمنا. ولم يسبق لنا أن واجهناه.

بالنسبة لي، سأعتبرُالأمر مؤسفاً؛ لأنّنا يتوجب علينا أن نلخّصه في دقيقة رائعة واحدة من التجربة".

-"أتّفقُ معك تمامًا". صاحَ "سمرلي"

-" لقد حُملنا دفعة واحدة". قال اللورد "جون"

"واحسرتاه! سائقكَ المسكين. مُلقى في الفناء. لقد قام برحلتهِ الأخيرة! ألا توجد طريقة لمحاولة الخروج وإعادتهِ إلى هنا؟"

-"جنون! جنون مطلق بلا شك!"

في إثر صراخ "سمرلي"، لم يصرّ اللورد "جون"، فقال هامسًا:

"حسنًا، أظنُّ ذلك! لن يساعدهُ شيء على العودة إلى الحياة، وسوف ينتشر الأوكسجين في أرجاء المنزل، على افتراض أنّنا يمكننا أن نعود إلى هنا...

يا إلهي، انظرْ إلى العصافير الصغيرة تحت الأشجار!

قرَّبنا الكراسي إلى النافذة الطويلة المنخفضة، لكنَّ السيدة تشالنجر ظلت ممددة بعينين نصف مغلقتين على الأريكة. أتذكّر الفكرة الوحشية والبشعة التي راودتني: كنّا جالسين في أربعة كراسي أوركسترالية في الصف الأمامي، نشهدُ آخر عمل مأساوي في العالم.

لا شكَّ في أنَّ هذا الوهم كان يزيدهُ الهواء الثقيل الرقيق الذي نتنفسه.

مباشرة أمام أعيننا، كانت السيارة في الفناء الصغير نصف نظيفة. نالَ أوستن، السائق، أخيرًا إجازته الأخيرة، كانَ مستلقياً على ظهره بجانب العجلات، مصاباً بكدمة سوداء كبيرة على جبهته. ربّما ضُربَ رأسه في جَناحَ السيارة، أو على درج الصعود إليها.

ما زال يقبض بيده على خرطوم المياه حيث كان يغسل السيارة.

ارتفعتْ شجرتان قصيرتان على المستوى نفسه في زاوية الفناء، كانت الأرض تحتهما مملوءة بكرات صغيرة من الريش ذوات أرجل صغيرة تتضرع إلى السماء. لقد ضربَ الموت الوضيع والجليل من الخلق على حد سواء.

على الجانب الآخر من جدار الفناء، كان الطريق الذي قطعناهُ قادمين من المحطة مليئًا بجثث الفلاحين الذين رأيناهم يركضون. كانوا مستلقين، متقاطعين، أحدهما فوق الآخر، أسفل الساحل.

في نقطة أعلى، تعرَّضت مربّية الأطفال للإصابة كذلك، بينما استقرَّ رأسُها وكتفاها على السد العشبي.
سبقَ أن أخرجت الطفل من عربة الأطفال، وكان بين ذراعيْها متكوّماً بين حفنة من الدثارات التي كانت تحملها دائمًا بين ذراعيها.
كان الفتى الصغير ملتصقاً بظهرها، وبدا ككومة هامدة لا أكثر.
في بقعة أقرب لنا، ركعَ حصان العربة ليموت بين نقّالاتها، تدلّى السائق العجوز رأسًا على عقب فوق جناح العربة، بدا وكأنّه فزَّاعة حقل.
في الداخل، على المقعد، كان يجلسُ شاب. يمكننا رؤيته بوضوح عبر النافذة: كانت يده مستلقية على مقبض الباب نصف المفتوح، بدا كما لو أنّه حاول القفز بكل قواه.
ثم كان هناك ملعب الغولف: كما في الصباح، كان مليئًا بالأجساد التي نتأتْ بصورة بارزة على العشب الأخضر، لكن كل تلك الكومات الهامدة امتدّت بطول الملعب، أو كانت مترامية على الرصيف الذي يجاورهُ.
على العشب الأخضر، كان لدينا ثمانية جثامين، وفي جوارها أربعة غلمان مساعدون، استمرَّت اللعبة حتى النهاية، ولم يتعثّر اللعب.
تحت قبّة السماء الزرقاء، لم يعد هناك طيور تحلق. على امتداد الريف الشاسع بقدر ما يمكن أن تراه العين، لم يعد هناك أيُّ أثر للحياة البشرية أو الحيوانية. ألقت شمس المساء بدفئها السلمي على منظر طبيعي مدفون في سكون الموت وصمتهِ ... موت سيغمسُنا قريبًا في كفنهِ أيضًا.
في اللحظة الآنيّة، قام لوح رقيق من الزجاج الهش، والأوكسجين الإضافي الذي أحبطَ تأثير سمّ الأثير، بإبعادنا عن المصير المتجاوز لحدودنا المكانية.
لبضع ساعات، سيتمكن العلم وبصيرة الإنسان من الحفاظ على واحة حياتنا الصغيرة في صحراء الموت الشاسعة هذه، وستنقذنا من الخوض في كارثة هائلة.
ثم سينفذ الغاز، ويُسقطنا أيضًا على ظهورنا، نلهثُ على سجّادة غرفة البدوار الأنيقة. عندها سينتهي مصير الجنس البشري، وكل الحياة على هذه الأرض.
لدقائق طويلة، تخيّم عبرهما مهابة وجلال، فكّرنا في مأساوية العالم.
- هناك بيت يحترق!
أخبرنا تشالنجر، مشيراً إلى عمود من الدخان يتصاعد فوق الأشجار. أتوقّع أن يكون هناك الكثير منها، ربما مدنٌ بأكملها مشتعلة، لأنَّ الكثيرين من الناس قد سقطوا مع مصباح في أيديهم. تُظهر حقيقة الاحتراق نفسه أنَّ نسبة الأوكسجين في الغلاف الجوي طبيعية، وأنَّ الأثير هو المسؤول.
آه! هنا توهُّج آخر فوق قمة تلّ،" كروبورو".
إنّه نادي الغولف، أو أنا مخطئ للغاية. إنّها ساعة الكنيسة تدقّ أجراسها معلنة الوقت.

قد يكون من مصلحة فلاسفتنا أن يدركوا أنَّ المذهب البشري قد نجا في سباق الخالق!
- بحق المسيح! (صاحَ اللورد "جون"، وهو يقفز من كرسيه) "ما هذا اللهب؟ إنّه قطار.
كنّا نسمع هديرهُ على بعد مسافة منّا، وسرعان ما رأيناهُ يلوح في الأفق ويدور بسرعة مذهلة.
من أين أتى؟ وكم المسافة التي قطعها بهذه الطريقة؟ لم نستطع تخمين ذلك؟ فقط ببعض الحظ يمكن تخمين أينَ سيحط ويسكن.
لكن للأسف! رأينا نهاية مطافهِ، كان مروعاً، فكانَ يقف في طريقه قطار الفحم. حبسنا أنفاسنا عندما هدرَ القطار بسرعة فائقة على المسار نفسه؛ فكان تصادماً مروعاً!
تكدَّس المحرك والعربات دفعة واحدة في كومة من الخردة المعدنية الملتوية، والأخشاب المحطمة.
اندلعتْ نيران قانية ملتهبة. انتشرَ الحريق في جميع أنحاء القطار. لمدة نصف ساعة لم ننبس بكلمة، ظللنا مشدوهين، متحجّرين من هذا المشهد المروّع!.
- المساكين! أوه المساكين! بكت السيدة تشالنجر في النهاية، متشبّثة بذراع زوجها.
ردَّ تشالنجر، ماسحاً على يدها في هدوء:.” عزيزتي، الركاب في هذا القطار لم تكن فيهم حياة أكثر من الفحم الذي اصطدموا به، أو الكربون الذي هم عليه الآن".”
كان قطاراً تدبُّ فيه الحياة عندما غادرَ فيكتوريا، لكنّه الآن مجرد قافلة من الجثث، واجهَ أصحابُها مصيرهم.
.” وفي كل مكان في العالم، تتكرر المأساة نفسها”
ومضتْ رؤية غرائبيّة للأحداث أمام ناظريَّ
فكَّرتُ في السفن في البحر، فكرتُ في أنّها كيف ستواصل الدفع بالبخار؟، هل تتوقفُ حتى الأفران عن العمل؟، أم حتى تنجرف إلى بعض الشواطئ بأقصى السرعات؟.
والسفن الشراعية أيضًا، كيف ستعود وتملأ شحناتها ببحّارة مثكولين، بينما تتعفّن أخشابها وستتفسّخ مفاصلها، حتى يغرقوا في القاع الواحد تلو الآخر.
ربما بعد قرن من الآن، سيظل لون المحيط الأطلسي مصبوغًا بالحطام القديم المنجرف.
وعمال المناجم! (قالها "سمرلي" وفمهُ يفترّ بالحزن).
إذا عاد الجيولوجيون إلى الأرض مجدداً، فكيف سيواجهون النظريات الغريبة عن وجود بقايا بشرية، في تركيب طبقات كربونية في الأرض؟.

"لا أقولُ إنّي أعرفُ بمثل هذه الأمور" لفت نظرَنا اللورد "جون". ولا أفخرُ بما سيحدث، لكنّني أعتقد بعد ذلك أنَّ الأرض ستكون " افتراضاً خالية"، إذا مُحيَ الجنس البشري من على وجهها، فكيف سيكون هناك حياة مرة أخرى؟"

"في البدء، كان العالم خاليًا" (ردَّ "تشالنجر")، " بموجب القوانين التي ماتزالُ في صميمها مليئة بالغموض، إلا أنَّ الأرض أُهلتْ بالسكان. فلماذا لا تكررّ العملية نفسها؟".

"عزيزي تشالنجر، أنتَ لا تتحدث بجدية؟"

" أنا لستُ معتادًا، بروفيسور سمرلي، على قول أشياء لا أعنيها تماماً. هذه الملاحظة في غير محلّها.

رأينا لحيتهُ تمدُّ أمامه، وتتهدّل جفونه.

"لقد عشتُ عقائدياً "كدوغماتي"، كنتُ عنيداً، وتعرفُ أنَّ المرء يموت مرة واحدة". قال "سمرلي" بصوت لا يخلو من المرارة.

" وأنت ياسيدي، لقد قضيتَ عمركَ معوِقًا مقيَّد الخيال، ولا تقدر على فعل شيء حيال ذلك الآن"

" إنَّ ألدَّ منتقديك لن يتهموك أبداً بأنكَ تفتقر إلى الخيال" ردَّ سمرلي بحسم.

"بناءً على كلمتي!" (أكمل اللورد جون)،سيكون مثلكَ إذا واصلتَ استخدام أنفاسنا الأخيرة من الهواء النقي لتبادل السباب! بادئ ذي بدء، لا يهمّ ما إذا كانت الأرض ستأهلُ بالسكان أم لا! فبالتأكيد ذلك لن يكون في وقتنا نحنُ.

"بهذه الملاحظة، سيّدي، تنكشفُ حدودكَ الواضحة للغاية". قال تشالنجر بصرامة.

"لا يجبُ تقييد العقل العلمي الحقيقي بالزمان أو المكان. إنهُ ينصَّب نفسه رقيباً يقظاً على الخط الحدودي للحاضر، الذي يفصل الماضي اللامتناهي عن المستقبل اللامتناهي. ومن تلك الركيزة يمارسُ نشاطه نحو بداية ونهاية كل شيء.

عندما يحدثُ الموت، يتوقف العقل العلمي عن القيام بدوره من تلك الركيزة، يتوقف بشكل طبيعي ومنهجي حتى نهايته.

إنّه يستنكر حدوث أمرٍ طفيفٍ لا يُذكر، كانحلالهِ المادي، ذلك الذي يمارسهُ على التعقيدات الأخرى جميعها على مستوى المادة. ألستُ على حقّ بروفيسور سمرلي؟

"مع بعض التحفّظات أوافقك". قالها "سمرلي" متمتماً بجفاء.

" العقل العلمي المثالي"، واصلَ" تشالنجر"

" أتكلم عنهُ كغائب حتى لا أبدو متساهلاً، يجب أن يكون العقل المثالي قادراً على التأمّل في أمور العلوم المجردة بين لحظة سقوط صاحبه من

منطاد وحتى ارتطامه بالأرض. هؤلاء هم الرجال الأقوياء الذين جُبلوا على مغالبة الطبيعة واتّباع الحقيقة!

قال اللورد جون، وهو ينظر من النافذة: أشعرُ أنَّ الطبيعة تنتقم. لقد قرأتُ بعض المقالات الصحفية حول سيطرة الرجال أمثالكم على الطبيعة، لكن هذه المرة، تردُّ لكم الصاع صاعين.

"إنّها نكسة مؤقتة!" قال "تشالنجر". ما قيمة بضعة ملايين من السنين في دورة الدهر العظيمة؟ لقد نجا العالم الأخضر هناك- انظروا- هناك أوراق شجرة اللبد: الطيور ماتت، لكنَّ النباتات ماتزال حيّة. من هذه الحياة النباتية في المستنقعات والمياه الراكدة ستبزغ، مع الوقت، البزّاقات الدقيقة الزاحفة التي ستسبقُ جيش الحياة الجليل، الذي- في اللحظة الآنيّة، يضمُّنا - نحن الخمسة- كقوة حامية استثنائية.

بمجرد أن تعيد خلق أدنى أشكال الحياة نفسها، فسيكونُ ظهور الإنسان يقيني، كما هو الحال تمامًا عند نبتْ البلوط من شجرة البلوط. ستبدأ الحلقة القديمة في الدوران مرة أخرى.

" لكنْ السم؟" (سألتهُ)، ألن يئدَ الحياة في مهدها؟

"قد يكون السمّ مجرد طبقة من الأثير، يمكن اعتبارهُ تياراً خليجياً في هذا المحيط حيث نطفو. أو يمكن أن تبادر الطبيعة بالتسامح، ويمكن للحياة أن تتكيّف مع الظروف الجديدة. الحقيقة البسيطة الآن أنّه بكمية قليلة من الأوكسجين تزيد عن الحد الطبيعي في الدم، تمّت مساعدتنا لنقاوم ذلك، وتلك الحقيقة دليلٌ على أنّه لا يتوجَّبُ علينا تغيير الكثير، للسماح للحياة الحيوانية بالبقاء.

المنزل- حيثُ بقع الدخان الهاربة هناك- أصبحَ الآن مشتعلاً، تتصاعد منهُ ألسنة اللهب في الهواء.

- فظيع جداً! (غمغمَ اللورد جون). لم أرهُ متأثراً بشيء أبداً مثل هذه المرة.

" حسناً، بعد كل شيء، ماذا يهمّ العالم؟ ". قلتُ له.

"العالم قد مات. حرقُ الجثث أمثل طرق الدفن!"

" ماذا لو اشتعلت النيران في منزل "تشالنجر"، هل سينتهي كل شيء سريعاً؟!"

" توقعتُ هذا الخطر" (ردَّ "تشالنجر). " طلبتُ من زوجتي أخذ جميع الاحتياطات لدرء ذلك"

"كل شيء آمن. عزيزي، لكن بدأ رأسي يؤلمني من جديد. يا له من جو كئيب!"

"يجب تبديلهُ إذن. (قال تشالنجر). ثم انثنى على أسطوانة الأوكسجين.

"تكاد تكون فارغة الآن. استمرّت ما يقرب من ثلاث ساعات ونصف الساعة. الآن شارفت الساعة أن تصبح الثامنة. مما يعني أنّنا سنقضي ليلة

مريحة. أتوقع أن تكون نهاية مطافنا في التاسعة من صباح الغد. سنرى شروق شمس واحد بعد، سيكونُ الأخير لنا.
لقد فكَّ الأسطوانة الثانية، ومن ثمَّ فتحَ الكوّة لتحسين الهواء في الغرفة، إلا أنَّ حالتنا ساءت؛ فأغلقها بعد نصف دقيقة.
"بالمناسبة " أضاف: " لا يعيشُ المرء على الأوكسجين فقط، لقد باغتَنا وقت العشاء وتجاوزناه. أؤكّد لكم، أيها السادة، أنّني عندما دعوتكم إلى منزلي لحضور اجتماع، كنتُ أنوي أن نقضي وقتاً رائعاً، كنتُ أنوي أن يرضيكم مطبخنا. لا يهمّ! سنفعل ما نستطيعه. بالتأكيد توافقونني الرأي أنّه سيكون عبثاً إن استهلكنا الأوكسجين بكمية كبيرة لإشعال موقد الكيروسين. لدينا بعض اللحوم الباردة، الخبز، والمخللات، التي مع زجاجتي بوردو ستفي بالغرض.
شكراً لكِ حبيبتي، كعادتكِ، " ملكة في الترتيب والتنظيم"
لقد كان رائعاً حقاً كيف قامت السيدة، باحترام كامل كمدبرة المنزل الإنجليزية وبمنتهى اللياقة، فوضعت الطاولة في المنتصف في غضون دقائق، وغطّتها بمفرش أبيض ثلجي، ووضعت المناشف عليها، ومن ثمَّ وضعت أمامنا وجبتَنا البسيطة بكلّ تحضُّر، وتوسَّط الطاولة مصباح كهربائي!.
وكان رائعاً حقاً أن نجد أنَّ شهيَّتنا قد عادت.
قال "تشالنجر"، مفعماً بالفضل الذي يتلبَّسهُ نحوي دوماً، عندما يفسّر لنا عقله العلمي بعض الحقائق البسيطة: " إنهُ معيار عاطفتنا".
"لقد مررنا بكارثة كبيرة. مما يعني اضطرابًا جزيئيًا. وهو ما يعني بالتأكيد الحاجة إلى استعادة النظام. دوماً ما يتولّد الجوع الشديد من الفرح العارم أو من الحزن الكئيب، وليس الزهد كما يحبُّ روائيينا تصور أمرهِ".
"لهذا السبب، في الريف، تعتبر الجنازات مناسبة لتقديم الوجبات الشهية!". قلتُ مُمازحاً.
"بالضبط، لقد عبَّر صديقنا الشاب بالمجاز الصحيح... لذا سأعطيكَ شريحة أخرى من لحم "اللسان"
قال اللورد "جون"، وهو يقطّع قطعة اللحم: " نفس الذي فعلهُ الهمج. رأيتُهم يلقون بزعيمهم في نهر "أوريمي". ومن ثمّ أكلوا فرس النهر، وزنهُ يعادل عشيرة. هناك أيضاً مواطنون من غينيا الجديدة، يأكلون المتوفّى الراحل شخصيًا، يظنون أنّهم هكذا يودعونه بصورة أنيقة. حسناً! من بين جميع وجبات الجنائز على هذه الأرض، أعتقد أنَّ هذه هي الأكثر غرابة!
تدخلت السيدة "تشالنجر" وقالت: "الغريب أنّي أحسُّ أنه يستحيل عليّ الشعور بالحزن على مَن رحلوا. في بيدفورد، لديَّ أمي وأبي. أعلم أنّهم رحلوا، ومع ذلك، في تخوم هذه المأساة العالمية، لا أشعر بأيّ ألم تجاه أحد حتى هم.

"ووالدتي العجوز في الفيلا الأيرلندية! (أضفتُ)، أراها بعين خيالي، ترتدي لفاعَها ودثارها الدانتيل. استقرت في كرسيها المتهالك، مغلقة العينين، كان كرسياً عاليَ الظهر بجوار النافذة. بجانبها كتابها ونظاراتها. لماذا أفجعُ عليها؟ لقد تجاوزت العتبة التي على وشك أن أعبرها إلى حياة أخرى، سأكون فيها أقرب إليها ربما من أي مكان في أيرلندا أو انجلترا. ومع ذلك، يأكلني الحزن؛ لأنَّ ذاك الجسد العزيز لم يعد موجوداً.

أردفَ "تشالنجر": " الجسد! مَن يُفجع لقصّ شعره، أو تقليم أظفاره! رغم أنّهم كانوا أجزاء من أجسادنا. الشخص ذو الساق الواحدة لا يئنّ كلما شعرَ بعضوه المبتور. بدلاً من ذلك، كان جسمنا المادي مصدراً للمعاناة والتعب بالنسبة لنا: إنّه مؤشر حذر لحدونا. لماذا نبكيهِ إذا انفصلَ عن ذواتنا الروحية؟

"إذا كان يمكن انفصالهما بالفعل". (هدرَ "سمرلي"). في الحالتين الموت المُجتاح للعالم فظيع.

ردَّ "تشالنجر": " كما وضحتُ لكم من قبل، يحتّم أن يكون الموت الشامل بطبيعته أقل فظاعة من موت المرء بمفرده."

وافقهُ اللورد "جون": كما تجري الأمور في الحروب. إذا رأيتَ رجلاً يرقد على تلك الأرضية في وجهه فجوة، وصدرهُ متدلٍ، فسيفجعكَ ذلك!

لكن في السودان! رأيتُ عشرة آلاف رجل مستلقين على ظهورهم، ولم أشعر بشيء كهذا!

لأنكَ عندما تصنع التاريخ، ستكون حياة أيّ رجل رخيصة جداً للقلق بشأنها. لذاعندما يتوفّى ألف مليون رجل معًا، كاليوم، فلا يمكنك الانفراد بالحزن على ذويكَ فقط.

-"أوه! أتمنّى أن ينتهي الأمر على خير معنا! تنهدّت السيدة "تشالنجر". "جورج، أنا خائفة جداً"

" عندما يحينُ وقتنا، ستكونين أكثرنا شجاعة، أيتها السيدة الصغيرة! لقد كنتُ زوجاً عجوزاً مزعجاً عزيزتي. لكن عليكِ أن تضعي في اعتباركِ أنَّ "جي. إي. سي"، كان كما تمَّ صنعه، ولا يمكن أن يكون بأيّة طريقة أخرى. وفي النهاية، أكنتِ تريدين زوجاً آخر لكِ؟"

" أوه! لا أحد في العالم، حبيبي!". قالت، وهي تحيط عنقهُ الثخين بذراعيها.

سرنا ثلاثتنا إلى النافذة. وقفنا نتابع المشهد مشدوهين لما نرى. أسقطت ستائر الحلكة أطرافها، وانغمسَ العالم المثكول في الظلمة.

ولكن، في الأفق الجنوبي مباشرةً، لاحَ شعاع طويل قرمذي زاهٍ، ينقشع ويخبو في ومضات لامعة حيّة، يتصاعد فجأة متوهجاً قرمذياً قانياً، ثم يخفتُ ليمسي لساناً رفيعاً من النار.

" لويس تحترق!". صحتُ

"لا، "بريتون" هي التي محفوفة بالحرائق". (صحَّح "تشالنجر"، وهو يخطو لينضم إلينا).
"يمكنكَ أن ترى الانحناءات للروابي ناتئة هناك، على الجانب الآخر خلفهم، يندلع الحريق على بُعد أميال. بالأحرى، غاصت المدينة كلها أسفل النيران".
" كانَ هناك بقع وهّاجة قانية في أماكن متفرقة. ماتزالُ كومة الحطام المتراكمة على طول خط السكك الحديد تحت وطأة الحريق ببطء، لكنّهم بدوا نقاطاً ضوئية ضئيلة، مقارنة بالحريق الوحشي هناك خلف التلال في "بريتون".
يا لهُ من سبق يُغتنم للجريدة! ألم يكن أيّ صحفي محظوظ كفاية؛ لكي لا يُضيع هذه الفرصة؟ فالأمر فريد وحصري، ولن يكون لشخص إمكانية تقديره!
بغتةً استيقظتْ غريزتي القديمة، وشرعتُ في التدوين. بما أنَّ رجال العلم أولئك ظلوا مخلصين لعملهم حتى اللحظة الأخيرة، فلماذا لا أُظهرُ، ببعض الشيء من التواضع، الإخلاص نفسه؟
لن يرى أحدٌ ما سأفعله. ولكن على الأقل، هناك طريقة ستمرّر الليلة المسهبة بسهولة أكبر.
بدا النوم متعذّرًا عليَّ بالنسبة لي!
الملاحظات التي سأدوّنها ستشغل ساعات الليل الباهتة، وتمنعني من التفكير... ولهذا السبب أمامي اليوم دفتر الملاحظات مليئاً بالخربشات والمسودات، التي سجّلتها على ضوء شعلتنا الوحيدة، مستنداً على ركبتي. إذا كان لديَّ القليل من الموهبة الأدبية، فإنَّ هذه الصفحات ستكون على قدر مستوى الأحداث.
رغم ذلك، على أيّة حال، سيقدّمون للجمهور شهادة حية عن ليلة فظيعة، مليئة بالعواطف الساحقة.
"مذكرات سكرات الموت"
في أعلى الصفحة الفارغة في دفتر ملاحظاتي، كيف تبدو هذه الكلمات غريبة بالنسبة لي؟ ولكن ليس غريباً أنّني كنتُ من كتبها: أنا إدوارد مالون، منذ أكثر من اثنتي عشرة ساعة في شقتي في ستريثام، لم يكن لديَّ أيّة فكرة عن الأحداث التي سيجلبها هذا اليوم للعالم؟
أعودُ إلى بداية سلسلة الظروف: مقابلتي مع." مكاردل"، رسالة تحذير "تشالنجر" للتايمز، الرحلة العبثية في القطار، الغداء اللطيف، الكارثة ... والآن ها نحنُ بمفردنا، نُنعم النظر في كوكب مهجور.
مصيرنا لا مفرَّ منه. أستطيع أن أفكّر في هذه السطور، التي أكتبُها كعادة مهنيّة آلية، والتي لن يقرأها أحدٌ على الإطلاق، كما لو أنّها كلمات رجل ميت بالفعل، يقف على التخوم الفاصلة التي خلفت الموت وراءها في الأرض.

أتذكر كلمات "تشالنجر" وقتما قال: إنَّ الدراما الحقيقية ستتمثل في النجاة من كل ما هو نبيل، عظيم وجميل: كم كان على حق! ولكن لا يمكن أن يكون هناك شك في البقاء على قيد الحياة: الأكسجين الثانية لدينا، إنّها تقترب بالفعل من نهايتها. في غضون دقيقة سينفذ أسطوانة سيمكننا الغثاء البائس المتبقي لنا من حيواتنا.

لقد حصلنا للتو على مكافأة لمدة ربع ساعة بمحاضرة تشالنجر. كان متحمسًا لدرجة أنّه كان يصيحُ ويجأر كما لو كان يخاطب جمهوره القديم المتشكك فيه. "ذا كوين هول" في الواقع، كانَ هناك جمهور غريب استمعَ إلى محاضرته: زوجته، التي تستمع إلى أشياء لا تفهمها، سمرلي، جالس في الظل، مكتئب، متحفز للنقد، لكنّه مهتم، اللورد جون، كانَ مستلقيًا في زاوية ضجراً ممَّا يقال، أنا، أخيرًا، بجوار النافذة وأراقبُ المشهد بانتباه مشتّت، كما لو كان حلمًا أو شيئًا لا يهمّني شخصيًا. جلسَ تشالنجر أمام الطاولة في منتصف الغرفة، واضعاً مصباحاً يدوياً مُسلطاً ضوءه على شريحة تحت المجهر، كان قد جلبهُ من حمَّامه. قسَّمت الدائرة الصغيرة للضوء الأبيض المنتشر بواسطة المرآة وجههُ الملتحي الخشن إلى قسمين: أحدُهما مضاءٌ جيدًا، والآخر سقط في الظل. لفترة طويلة كان يعمل على أدنى أشكال الحياة، وما أثارهُ حتى الآن هو أنّه على الشريحة التي قام بإعدادها - قبل يوم واحد من اكتشافه- هناك الأميبا ماتزال على قيد الحياة.

"يمكنكم رؤيتها بأنفسكم! (كرَّر بحماس شديد) "سمرلي، هل ستأتي لتُشبع فضولك؟"

" مالون، أيمكنكَ التحقق ممَّا أقوله؟ الأشياء المدببة الصغيرة في المركز هي الدياتومات. يمكنكَ تخطّيها، لأنّها على الأرجح نباتات وليست حيوانات. ولكن إلى اليمين سترى الأميبا الحقيقية تتحرك ببطء في مجالها. سنّها العلوي مثالي للغاية! انظروا، افحصوها بأنفسكم.

أذعنَ "سمرلي" لطلبهِ، ومن ثمَّ اتفقَ معه. ومن بعده، انحنيتُ ورأيتُ مخلوقاً صغيراً، بدا كما لو أنّه شظية زجاجية رقيقة، تتحرك بصورة لزجة عبر الدائرة المضيئة.

أمَّا اللورد جون، فكان مستعداً أن يضع ثقته به:

"بالتأكيد، لن أورّط عقلي في متاعب لأكتشف ما إذا كانت ميتة أم لا! لم نعرف بعضنا البعض إلى حد كبير بمجرد النظر، أليس كذلك؟ لماذا عليَّ أن أهتمّ بمصيرها بعاطفة؟ لا أعتقدُ أنّها تُقلق نفسها بشأن صحتنا!

انفجرتُ ضاحكاً، وبعدها رمقني "تشالنجر" بنظرة باردة يملؤها الازدراء.

"إنَّ تهكّم شبه المتعلمين يعرقلُ سير العلم أكثر من الجهالة. إذا تنازلَ اللورد جون روكستون" قال "تشالنجر".

"جورج. عزيزي. لا تكن سريع الغضب!". (همست السيدة "تشالنجر"، وهي تضع يدها الحانية على اللِبْدَة السوداء الساقطة على المجهر) " ما

الهامّ إذا كانت الأميبا ميتة أم حية؟"
- الأمر هام للغاية! (ردَّ "تشالنجر" بفظاظة).
"جيد. لنستمعْ إليك، تشالنجر! (قال اللورد جون في جذل). فلنتحدَّث عن الأميبا هذه كالأمور الأخرى! إذا كنتَ تعتقد أنّني كنتُ فظاً جداً بشأن هذا الشيء، أو أنّي آذيتُ مشاعرها الدفينة؛ فسأعتذر".
" من ناحيتي. (علّق " سمرلي" بصوته المثير للجدل). لا أرى لماذا تعلّق هذه الأهمية على أميبا مازالت على قيد الحياة. إنّها في الجو نفسه الذي نعيش فيه، لذا فالسم لن يعمل عليها. لو كانت خارج هذه الغرفة، لكانت قد ماتت، كأيِّ فصيل آخر من الحياة الحيوانية التي أبيدتْ".
قال "تشالنجر" متحدياً زميله: (أوه! لو كان بإمكاني رسم ذلك الوجه المتغطرس المتعجرف، المنعكس على صفحة الدائرة الزاهية المنعكسة على مرآة المجهر).
"ملاحظاتكَ، يا سمرلي الرائع. تثبتُ أن لديك تقدير ضعيف للوضع الراهن. لقد حصَّرت هذه العينة بالأمس، وأغلقَ عليها بإحكام. لا يمكن للأوكسجين أن يصل إلى هناك. لكنَّ الأثير، بطبيعة الحال، قد اخترقها كما تخلّل كل شيء في الكون. ومع ذلك، نجت الأميبا من السم. من خلالها يمكننا أن نستنتج أنَّ جميع الأميبات الموجودة خارج هذه الغرفة، بدلاً من أن تكون ميتة كما ادَّعت زوراً، نجتْ بالفعل من الكارثة."
"حسناً! حتى لا أشعر بنزعة تجاه التسرع في الأمر. ما أهمية الأمر؟". تساءلَ اللورد جون.
" أوه! هذا يعني وحسب أنَّ العالم على قيد الحياة وليس ميتًا. إذا كان لديكَ القليل من الخيال العلمي، فكّر بعين ذهنكَ الدفينة في هذه الحقيقة الوحيدة: في غضون بضعة ملايين من السنين، ملايين من السنين مجرد لحظة عابرة في تدفق العصور الهائل، سيُفعم العالم بالحياة البشرية والحيوانية مرة أخرى، المنبثقة من هذا الجُرم الصغير.
لقد رأيتَ حريق البراري، رأيتَ ألسنة اللهب تجتاح كل أثر للعشب أو النبات على سطح الأرض، ولم تترك منها سوى مساحات شاسعة من السواد. قد تظنّ أنّها ستبقى للأبد مهجورة. محال، فمازالت جذورها هناك.
وعندما تمرُّ بهذه الطريق بعد بضع سنوات، سيتعذّر عليك الجزم بمكان آثار الندوب السوداء في الأرض. حسناً! هنا، في هذا المخلوق الصغير، تنطوي الجذور التي سيبنثقُ منها العالم الحيواني، وعبرَ تطوُّره الوراثي، ونشوئه، فإنّه سوف يمحو كل أثر لهذه الكارثة - التي لا تُضاهى- من على ظهر هذا الكوكب.
" مثير للغاية! (تنازلَ اللورد "جون"، وقرَّر النظر إلى المجهر)، أهذا المخلوق الصغير المضحك سيكون الجدّ الأكبر بين صور العائلة... ما هذا؟ ألديها ما يشبهُ زر قميص كبير؟"

بدا "تشالنجر" كمربّية تعلّم رضيعاً الأبجدية: " إنَّ هذا الجسم الأسود هو نُواتها!"

"حسناً، لسنا في حاجة للشعور بالوحدة، على الأقل هناك أحدهم يعيش بجانبنا على هذه الأرض!" (تنهَّد اللورد "جون").

"يبدو أنكَ تعتبر أنَّ هذا الأمر مسلمًا به تشالنجر" (تدخَّل "سمرلي").

خُلقَ العالم لغرض وحيد، وهو استيلاد وإدامة الحياة البشرية"

قال "تشالنجر"، الذي كان يتأهّب بمجرد أن يشمّ رائحة أدنى تكذيب: "بالتأكيد! لكن يا سيدي، ما الذي تقترحهُ عليّ؟! أعتقدُ في بعض الأحيان أنَّ الغرور الوحشي للبشرية، هو السبب وراء اعتقادهم أنَّ هذا المسرح نُصبَ ليقيموا عليه عرضهم الخاص".

"في هذا الأمر لا يمكن أن نكون عقائديين، ولكن إذا نحَّينا جانباً ما تجرأتَ وأسميتهُ بالغرور الوحشي، فبالتأكيد أنّه يحقّ لنا أن نقول: إنَّ حياة الإنسان هي أعلى شيء في النظام الطبيعي".

"أعلى ما ندرك".

"غنّي عن القول، سيدي".

"فكّر في ملايين- ربما بلايين السنين ــ التي تأرجحتْ فيها الأرض خاوية في الفضاء، أو ربما لم تكن خاوية تمامًا، على الأقل خاوية من أدنى أثر للبشر.

فكّر في أرضنا، التي تغسلها الأمطار، وتحرقها الشمس، وتجرفها الرياح لعصور لا تُحصى. في الأمس فقط، حسب الوقت الجيولوجي، ظهرَ الإنسان. فلماذا نعتبر أنَّ كل هذا التحضير المهول أمرٌ لصالحه؟"

"إذن، لمن؟ أو لمَ؟

هزَّ "سمرلي" كتفهُ ردَّاً على ذلك.

"كيف بوسعنا أن نقول؟ لسبب ما وراء تصورنا تمامًا، قد يكون الإنسان محض حادث، مُنتج ثانوي مُتقن الصنع في عملية ما. يبدو الأمر كما لو أنَّ الغُثاء على سطح البحر، تتخيّل أنَّ المحيط خُلقَ لإنشائها ولحمايتها؛ أو كما لو أنَّ الفأر في الكاتدرائية ظنَّ أنّها شُيدت لتكون مستقرَّ إقامته.

لقد دوَّنتُ كل حرف صدرَ من كل منهما في تلك المناقشة؛ لكنّها الآن تتصاعد في ذهني إلى مناقشة صاخبة، من كل جانب، فيها الكثير من المصطلحات العلمية متعددة المقاطع. بلا شك امتلأتُ بالسعادة لسماع مثل هذه العقول تناقش المشكلات الأساسية، ولكن بما أنّهم لا يتّفقون بتاتاً؛ فإنَّ المستمعين ببساطة مثل اللورد جون وأنا، لا نحصلُ على الكثير من الفائدة من هذه اللعبة. إنَّهما يُحايدان بعضها البعض، ونحن لا نتقدم أكثر من ذي قبل. الآن هدأتْ صهوة أصواتهم. التفَّ "سمرلي" في كرسيه. بينما تشالنجر، الذي مايزالُ يلمس براغي مجهرهِ، يحافظ على هدرهِ مستمراً وعميقاً ومنكتماً مثل البحر بعد العاصفة. يسير إليَّ اللورد جون، وكلانا نراقب الليل.

القمر شاحب، جديد، وآخرُ ما سيحدّق فيهِ بشر. والنجوم تلتمع مزهوّة. حتى في هضبة أمريكا الجنوبية الصافية، لم أرَها تتألق هكذا على صفحة سمائها.

ربما يكون لهذا التغيير الأثيري بعض التأثير على الضوء. ما زالتْ محرقة جنازة "برايتون" في أوجها.

في السماءِ الغربيّة، أرى بقعة قرمذية بعيدة للغاية، تشير إلى أنَّ هناك مُصاباً خطيراً ما في أروندل، أو في شيستر، ما لم يكن في بورتسموث. أجلسُ، أنقلُ بصري بين المشهد ودفتر ملاحظاتي، أدوِّن بعض الهوامش. تخيّم كآبة عذبة في الخارج. الشباب، الجمال، القوة، الحب...أهذه نهاية كل شيء؟ تبدو الأرض، تحت ضوء النجوم، وكأنّها أرضٌ خيالية للسلام العذب.

مَن يتصور أنَّ تلك هي الغولغوثا المهيبة، التي تنتشرُ فيها جثث الجنس البشري؟

بغتة، أجدُ نفسي أضحك.

"مرحباً! يا صاح" (قال لي اللورد جون، محدقًا بي في دهشة!). من الجيّد دومًا الضحك في مثل هذه الأوقات. أبإمكاني مشاركتكَ الضحك؟"

أجبتهُ: " كنتُ أفكّر في القضايا الكبرى التي لم يتمّ حلها. المعضلات التي عملنا على التفكير فيها سوياً، وعملنا على حلها معاً. مثلاً: منافسة (الأنجلو-ألمان، أو حول الخليج الفارسي)، التي كان رئيسي العجوز مولعاً بها.

مَن كان يدري، عندما كنّا نقلق ونغضب لأجل تلك القضايا، أنّها ستحلّ عبر الوصول إلى نهاية العالم، عبر الخلود؟

غرقنا في الصمت مرة أخرى. أظنّ أنَّ كلّاً منّا يحوِّل أفكاره إلى أصدقائه الذين رحلوا من قبل. تنتحب السيدة "تشالنجر" بهدوء، ويهمسُ زوجها في أذنها.

تدور الأفكار في فضاء ذهني حول أكثر الشخوص اختلافاً، أتخيّلهم مستلقين، متصلّبين وشاحبي اللون مثل "أوستين" المسكين في الفناء. فـ"مكاردل"، على سبيل المثال، أعرفُ بالضبط أينَ سقط، رأسه على مكتبه، يد واحدة على الهاتف. ورحل "بومونت"، مدير التحرير، أيضًا، أظنّه يرقد الآن على السجادة التركية القرمزية الزرقاء التي تزيّن محرابه. وزملائي المراسلون أيضًا في غرفة الأخبار- ماكدونا، موراي، وبوند- بالتأكيد فارقوا الحياة أثناء انغماسهم في أعمالهم، ممسكينَ في قبضاتهم دفاترَ ملاحظاتهم التي تضم الكثير من التفاصيل، والانطباعات الشخصية. يمكنني رؤيتهم يركضُ أحدهم إلى الأطباء، وآخر إلى "ويستمنستر"، والثالث إلى "سانت بول".

لقد فوَّتوا رؤية بانوراما استثنائية للعناوين الرئيسية في الصفحات الأولى، فما من شيءٍ أسمى من رؤية مقالاتهم متجسدة في حبر الطابعة، والتي الآن لن يقرأها أحدٌ على الإطلاق.

أتخيّل "ماكدونا" بينَ الأطباء - الأمل في "هارلي ستريت"- إن كان "ماك" ضعيفًا في صياغة العناوين الاستهلالية.
مقابلة مع السيد "سولي ويلسون".
الإخصائي الشهير، يؤكد: " لا تيأس أبداً "
لقد وجدَ مراسلنا الخاصّ العالِم البارز يجلس فوق سطح بناية، حيثُ لجأ إلى هناك لتجنب حشد من المرضى المذعورين الذين غزوا منزله. بطريقة أوضحت أنه أدركَ تمامًا خطورة الساعة الهائلة، رفضَ الفيزيائي الشهير الاعتراف أنَّ أي باب للأمل مغلق.
تلك هي الطريقة التي سيبدأ بها "ماكدونا" مقاله.
ثم كان هناك بوند. كان سيذهبُ بلا شك إلى،" سانت بول". كان متوهماً أنَّ له لمسة أدبية قضية خاصة به. يا إلهي! يا لهُ من موضوع!
"أقفُ في الصالة الصغيرة تحت القبة، أتأملُ تلك الكتل المليئة بالإنسانية اليائسة، أصحابها يتضرَّعون في اللحظة الأخيرة إلى جلالٍ يتجاهلونه باستمرار، ومن بين الحشد الراكع يرتفع إلى أذنيَّ صوتٌ مثل أنين منخفض من التوسل والفزع، مثل صرخة مرتعدة لمساعدة مجهول، إلى آخره..."
أجل، لابدَّ أنَّ هذه كانت نهاية عظيمة لحياة مراسل! ولكنّه مثلي، سيموت مع كنوز لن يراها أحد، ما الذي لا يمكن أن تمنحهُ يا بوند المسكين، لترى "جيه. إتش. بي" في نهاية مقال كهذا!
لكن ما هذا الهراء الذي أكتبهُ؟! فقط أحاول قتلَ الوقت. ذهبت السيدة "تشالنجر" إلى الحمام، ويخبرنا الأستاذ أنها تشعر بالنعاس. أمام الطاولة في منتصف الغرفة، يجلس ويدوّن الملاحظات، يفحص الكتب بهدوء كما لو كان أمامه سنوات من العمل الهاديء. يكتب بريشة تصرُّ تحت أنامله، كما لو كانت تصرخ في وجه من يختلفون معه.
غاصَ "سمرلي" في كرسيّه بشكل تدريجي، يصدرُ شخيراً مثيراً للغضب. بينما استلقى اللورد "جون" على ظهره، يغلقُ عينيه، ووضعَ يديه في جيوبه.
كيفَ يمكن للناس أن يناموا في مثل هذه الظروف؟ إنّه لضربٌ من الخيال!
في الثالثة والنصف صباحًا، استيقظتُ للتو وأنا أحسّ باليقظة. كانت الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق عندما كتبتُ الورقة الأخيرة. أتذكرُ أنّي أدرتُ ساعتي وتفقدتُ الوقت. فقد أضعتُ ما يقرب من خمس ساعات، في الفترة القصيرة التي سمحتْ بها الحياة لي قبل ملاقاة نهايتي. مَن كان يصدق ذلك؟ إلا أنّي أشعر بأنني أكثر نشاطاً، واستعدادًا لمصيري، أو أحاول إقناع نفسي بأنني كذلك.
ومع ذلك، كلما كان الرجل أكثر لياقة، أطالَ ذلك في حياته، وأصبحَ أكثر تردداً في أن يموت.
يا لها من طبيعة رحيمة وكريمة!

ما تمنحهُ للمرء من ملاذ زمني غير محسوس، إلى أن يحين الوقت وينحدر وعيهُ من مرساه الدنيوي - الذي لا يمكن درأه بعيداً- إلى البحر العظيم من بعده!

ماتزالُ السيدة "تشالنجر" في الحمام. سقط "تشالنجر" نائماً في كرسيه. يا لها من لوحة! يميل جذعهُ الضخم إلى مسند الظهر، ويداه الكبيرتان المشعرتان تعبران صدريته، يميلُ رأسه إلى الخلف حيث لا أستطيع أن أرى شيئاً فوق ياقتهِ إلا لحيتهُ المشعثة. يهتزّ جسده حسب طبقات شخيره. كان "سمرلي" يصدر شخيرهُ المرتفع ويصحبه "تشالنجر" أحياناً بشخير عميق عال.

اللورد جون أيضاً مازالَ نائماً. دحرجَ جسده الطويل إلى الجانب. تتسللُ أشعة الفجر الباردة عبر الغرفة، كل شيء بدا رمادياً وحزيناً.

أراقبُ شروق الشمس، ذلك الشروق المشؤوم الذي يُسقِط أشعته على عالم خالٍ من السكان. لم يعد هناك وجود للجنس البشري. كان يكفي يوم واحد لانقراضه. لكنَّ الكواكب تستمر في الدوران، المد والجزر يرتفع وينحسر. الريح ماتزالُ تهدر. كل الطبيعة تواصل عملها، حتى على ما يبدو الأميبا نفسها. ولا توجدُ أيّة إشارة على أنَّ من نصَّب نفسه سيدَ الخلق قد بارَكَ الكون أو لعنهُ بحضوره. في الفناء، تمدَّد "أوستن"، تمددت أطرافهُ على الأرض. يزهو وجهه بالأبيض تحت ضوء الفجر. وماتزالُ يدهُ الخامدة تقبض على فوهة خرطوم الحديقة. يُصنف الجنس البشري تلك الصورة الهزلية على أنها: نصف ساخر ونصف مثير للشفقة، فهنا رجلٌ مستلقٍ إلى الأبد، عاجزًا إلى جوار المحرك الذي كان يسيطر على الفوهة.

عند هذه النقطة، تنتهي الملاحظات التي كتبتُها في ذلك الوقت. منذ ذلك الحين، كانت الأحداث سريعة للغاية ومؤثرة للغاية بالنسبة إليَّ لأواصل كتابتي. لكنّها حُفرت جيداً في ذاكرتي، إلى درجة أنّها لن تخضع أيّة تفصيلة للتجاهل.

شعرتُ ببعض الألم في حلقي، فجُعلتُ أنظر إلى أسطوانات الأوكسجين؛ وبُهتُّ مما رأيتُ!. فكانت حبات الرمال في ساعة حياتنا الرملية ضئيلة للغاية. في وقت ما من الليل، حوّل "تشالنجر" الأنبوب من الأسطوانة الثالثة إلى الرابعة. فكان جليًا أنَّ هناك استنفاد ملحوظ للأوكسجين. صعد إلى جوارحي شعور بالانقباض، جعلني أجتازُ الغرفة لأفكك الأسطوانة الأخيرة. عندما لامستُ فوهتها، وخزني ضميري: في الواقع، إذا أمسكتُ بيدي، سيموتون جميعًا أثناء نومهم. لكن كل ترددي انقشعَ، عندما سمعتُ السيدة "تشالنجر" تصرخ من الحمام:

"جورج! جورج! إنّي اختنق".

-لا تقلقِي سيدة "تشالنجر"؛ قمتُ بتحضير الاحتياطي الجديد. (أجبُتها).

أثناء ذلك، نهضَ الآخرون قافزين على أقدامهم. في تلك اللحظة الرهيبة، لم يسعني الابتسام بينما كنتُ أشاهد "تشالنجر" الذي استيقظ لتوّه من النوم، وهو يفرك بقبضة شعر كبيرة في عينيه، بدا كأنّه طفل ضخم ملتحٍ.
ارتجفَ "سمرلي" كرجل في نوبة "الملاريا"، يشعرُ بذعر إنساني، عندما باغتهُ شعورٍ بوضعه الحالي، إنّه يغالب جَلَد العالِم. أما اللورد جون، فكان هادئاً ويقظاً كما لو كان يستعدّ لصباح يوم الصيد.
"الخامسة والأخيرة"، قالَ وهو ينظر إلى الزجاجة، "قلْ، عزيزي الشاب، لا تقلْ لي أنكَ كنتَ تكتب ملاحظاتك الخاصة في هذه الأوراق على ركبتيك؟"
- بضع ملاحظات، لتمرير الوقت.
- حسنًا، لا أظنّ أنَّ هناك أحداً باستثناء رجل أيرلندي، هو من يقوَ على فعل ذلك. أظنُّ أنه سيتعينُ عليك الانتظار حتى يكبر الأخ الصغير "أميبا" قبل أن تجدَ قارئاً. حسنًا، حضرة الأستاذ، ماهي آفاقُ آمالنا؟"
حدَّق "تشالنجر" في ركام الضباب الصباحي، المترامي على المناظر الطبيعية. هنا وهناك، ارتفعت التلال الشجيرية لترسم جُزر مخروطية على صفحة ذلك البحر القطني.
- يبدو كملاءة منبعجة! (همست السيدة "تشالنجر")، التي جاءت مرتدية ثوبًا طويلاً.
أتذكرُ أغنيتكَ المفضلة. جورج؟
"دقّ لينجليَ الماضي، دقّ ليباركَ المستقبل". لقد كانت نبوءة!
لكنكَ ترتجف. أصدقائي المساكين: أكنتُ دافئة طيلة الليل تحتَ غطائي، وأنتم تتجمدون في كراسيكم؟ لكن انتظروا سأدفئكم الآن!"
اختفت المرأة الصغيرة الشجاعة في الحمام، وسرعان ما سمعنا صوت الغلاية تئز، وعادت سريعاً بخمسة أكواب من الشوكولاتة لنا.
"اشربوا هذه! ستشعرون بتحسّن قريباً". قالت لنا.
وقد فعلنا، طلبَ "سمرلي" الإذن ليشعل غليونه، وطلبنا السجائر جميعاً. أظنّها وسيلة محضة لتهدئة أعصابنا. لكنّها كانت خطأ فادحاً، فسرعان ما أصبحَ الجو مروعًا في تلك الغرفة المتكدّسة. فتح "تشالنجر" كوّة التهوية.
" إلى متى ستستمرّ. تشالنجر؟" (سأله اللورد جون).
"ربما ثلاث ساعات" (ردَّ الأستاذ لا مبالياً).
قالت السيدة "تشالنجر":" كنتُ أتوقع أن أكون خائفة للغاية، ولكن كلما اقتربَ الموعد، بدا لي الأمر أسهل. ألا تعتقد أننا يجب أن نصلي، جورج؟"
"صلّي، حبيبتي، صلّي إذا كنتِ تريدين". همسَ الرجل بهدوء شديد وبلطف.
جميعنا لدينا طرق الصلاة الخاصة بنا. طريقتي الخاصة هيَ التقبل الكامل لأي شيء يرسله إليّ القدر في إذعان مريح. يتفقُ الدينُ الأسمى والعلم الأعلى، في رأيي، على هذه النقطة".
احتجَّ "سمرلي"، من وراء غليونه، على هذا الهذر:

" لا ينمّ موقفي العقلي عن شيء يخصّ الرضا، أو حتى القبول ببعض الراحة. بمنتهى الصدق. أستسلمُ لأنني مضطر لذلك. أعترفُ أنّي سأعيش سعيدًا لعام آخر، أعمل فيه على استكمال تصنيف حفريّات العصر "الطباشيري""

أجابَ "تشالنجر"، منتفخاً بالتعجرف:

"إنَّ عملكَ غير المكتمل ماهو إلا شيء ضئيل جداً إذا ما قارنتهُ بعملي العظيم (سلّم الحياة)، مايزال في مراحله الأولى. أفكاري، تجاربي، وقراءاتي ـ باختصار كل فريد أمتلكه ــ جميعها مكثفة في هذا الكتاب الخطير. ومع ذلك، كما ترون، أتقبّل ما يحدث!"

قال اللورد جون: "أعتقدُ أننا جميعاً نخلف وراءنا شيئاً لم يكتمل. ماذا تترك وراءكَ، صديقي الشاب؟"

"لقد بدأتُ في كتابة مجموعة من القصائد". أجبتُ.

"حسناً! على الأقل قد نجا العالم من ذلك! دومًا ما نجد تعويضًا عن كل شيء" ردَّ.

" وأنت؟" سألتهُ.

"أنا؟ كنتُ مستعداً ومنظِماً. فقد وعدتُ "ميريفال" أن أرافقهُ في رحلة الربيع إلى "التيبت" لاصطياد النمر الثلجي. ولكن بالنسبة لكِ، سيدة "تشالنجر"، الأمر أثقل عليكِ؛ لقد قمتِ ببناء هذا البيت الساحر".

"بيتي حيثُ يوجد جورج! أوه، ما لم أمنحهُ حتى نتمكن من المشي معًا في كثباننا في هواء الصباح المنعش!"

رددتْ قلوبنا صدى كلماتها. اخترقت الشمس حجب الضباب. غُمرَ المشهد في "ويبلد" بأكمله بأشعتها الذهبية. بالنسبة للذين جلسوا في أجوائنا المُدلهمة السامّة، كان هذا الريف الثري المجيد النقي، وتحفّه الرياح الباردة، ماهو إلا الجمال الذي نحلمُ به. تمدّ السيدة "تشالنجر" بيدها على مهل إليه في شوق مودّعة.

أحضرنا الكراسي إلى النافذة، وجلسنا في نصف دائرة. كان الهواء بالفعل أثقل. بدا لي أنَّ ظلال الموت تُخيّم فوقنا، مستعدة لتحيط بنا، ستارة خفية تغلق تدريجياً على آخر رجال فوق وجه الأرض.

قال اللورد جون، الذي كان يلهث لفترة طويلة:" هذه الإسطوانة لا تبدو أنّها ستدوم طويلاً، أليس كذلك؟"

"إنَّ كمية محتواها متغيرة" (أجاب "تشالنجر")، تختلف من أسطوانة إلى أخرى حسب الضغط والدقة التي امتلأت بها الأسطوانة. أتّفقُ معك روكستون. فهذه تبدو لي مُعيبة".

"إذن، خُدعنا في الساعة الأخيرة من الحياة" (علّق "سمرلي" بمرارة)، إنَّ هذا مثال أخير ممتاز للعصر الدنيء الذي عشنا فيه. حسناً، تشالنجر. حانَ الوقت الآن إذا كنتَ ترغب في دراسة الظواهر الذاتية للانحلال الجسدي".

استدارَ "تشالنجر" إلى زوجته وقال:" اجلسي على مسند القدمين، واقتربي من ركبتي، وأعطني يدكِ. أعتقدُ يا أصدقاء، أنَّ إطالة إقامتنا في هذا الجو الذي لا يطاق غير مستحسنة. أنتِ لا ترغبين في ذلك، عزيزتي، ألستِ كذلك؟"

أصدرت السيدة "تشالنجر" أنينًا قصيرًا، وأقحمت وجهها في ساقيّ زوجها.

قال اللورد جون: رأيتُ الناس يسبحونَ في "السربنتين" في فصل الشتاء. عندما يكون الجميع هناك، يبقى دائماً شخصٌ أو اثنان على الشاطئ، يرتجفان برداً، ويحسدان أولئكَ الذين هم بالفعل في الماء. الأخيرونَ هم الأكثر معاناة. أنا أؤيد الغوص الأخير. لقد ضقتُ ذرعاً! "

هل ترغب في فتح النافذة، ومواجهة الأثير؟

-أفضّل السمّ على الاختناق.

أومَأ "سمرلي" بالموافقة على مضض. ثم مدَّ يده إلى تشالنجر: "لقد كانت لدينا مشاجراتنا في أوقاتنا معاً، ولكنّها الآن مضت. كنّا أصدقاء جيّدين، ونحترم بعضنا البعض على الرغم من المظاهر، أليس كذلك؟

وداعاً"

"وداعاً، أيّها الشاب". (صاح اللورد جون)، لكنَّ الورق اللاصق عالقٌ على النافذة، لا يمكنني فتحها".

انحنى "تشالنجر" إلى زوجته. حملها وشدّها بقوة إلى صدره، وقد لفّت ذراعيها حول عنقه.

"مالون، أعطني هذا التلسكوب!". (قال بشكل خطير).

سلّمتهُ له.

"باسم القوى التي خلقتْنا، لنجتمع مجدداً". (صرخَ بهذه الكلمات الأخيرة بصوته الرعدي، قبل أن يرمي التلسكوب الزجاجي ويحطم النافذة).

على وجوهنا المتدفقة، قبل أن يخفتْ رنين آخر شظية سقطت على الأرض، لفحَنا نسيم الريح النقي، بارداً وناعماً.

لا أدري كم من الوقت جلسنا في صمت مذهولين!. ثمّ، كما لو أتى ذلك الصوت من الحلم، سمعتُ صرخة "تشالنجر".

"لقد عادت الظروف الطبيعية! لقد تحرَّر العالم من أثيره السامّ، ومن بين كل البشر، نحنُ الناجون الوحيدون!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العَالَم المُحتضِر

ما زلتُ أستطيع رؤيتنا، جالسين على مقاعدنا، نتنفسُ بعمق نسيم البحر من الجنوب الغربي، يمرّ بستائر "الموسلين" ويمسّد على وجوهنا المتوردة برفق. أتساءلُ: كم لبثنا هكذا؟ فيما بعد، لم نتمكن أبدًا من الاتفاق على هذه التفاصيل الأساسية. كنّا مندهشين، مذهولين، نصف واعين. لقد استجمعنا كل قوّتنا لنموت، لكن هناك تلك الحقيقة المخيفة غير المتوقعة - أيجبُ أن نواصل العيش بعد النجاة من زوال جنسنا البشري؟ والتي فاجأتنا بصدمة بدنيّة؛ ومن ثّم تركتنا منهكين.

ثم، تدريجياً، بدأت آليّتنا العالقة بالعمل مرة أخرى، وطفقتْ وَشيعة ذاكرتنا بالعمل في رأسنا. تمايلت الأفكار في أذهاننا. لقد رأينا بجلاء- مبهر للأنفاس لا يرحم- العلاقات بين الماضي والحاضر والمستقبل، والحياة التي كانت حياتنا، والحياة التي كانت تنتظرنا. تبادلتْ أعيننا الفزع الصامت نفسه، تعلوها الإجابات ذاتها. فبدلاً من الفرح الذي كان ينبغي أن يأتي إلينا -بعد فرارنا من موت سحيق- غمرتنا كآبة رهيبة. كل ما أحببناهُ على الأرض نُقل إلى محيط مجهول -لا نهائي-هائل. وألقى بنا وحدنا في جزيرة خاوية - أصبحت هذا العالم- محرومين من الأصدقاء والآمال والطموحات. بضعُ سنوات أخرى تكفي لنتوارى مثل بنات آوى بين قبور البشرية. عندها، ستأتي نهايتنا المتأخرة، ولكن الوحيدة.

"هذا فظيع، جورج، رهيب!" (صاحت السيدة "تشالنجر")، انفجرت في البكاء. لو أنّنا فقط رحلنا مع من رحلَ، أوه! لماذا أنقذتنا؟ أحسُّ بأننا الأموات، وقد عاش الآخرون".

وضعَ "تشالنجر" أناملهُ الضخمة المشعرة على يد زوجته المتوسلة، وفي اللحظة نفسها ارتعشَ حاجباهُ الكثّان من التفكير.

لقد لاحظتُ بالفعل، أنّها وقتَ أن تتألم، تمدُّ يديها تجاهه دومًا، كطفلة تتعلق بوالدتها.

من ثمَّ قرّر "تشالنجر" أن يتكلم: "بدون أن أبدو "مجبراً" إلى درجة عدم المقاومة، لكنني دومًا ما أجدُ أنَّ أعلى درجات الحكمة، تكمن في الإذعان للواقع". كان صوته الرنان يتهدّج بفيض مشاعره.

"لا أوافقكَ الرأي". ردَّ "سمرلي" بحزم.

اعترضَ اللورد "جون" على ذلك بقوله: " لا أرى أنَّ إذعانكَ أو رفضكَ يساوي أكثر من حفنة من الدبابيس". الحقائق هناك، سواء كنتَ تواجهها واقفةً أم مستلقية على أجنابها، لا يهمّ! ما هي الاحتمالات سواء أكنتَ تقبل أم لا؟ لا أتذكّر أنّ أيًا من هذه الحقائق حولكَ قد طلبت منك إذنًا بالوجود، ولا

يُتوقع أن يطلب أيّ شخص ذلك الآن. فما الفارق إذن الذي يمكن أن يحدثهُ ما قد نعتقد فيه؟ ".

ردَّ "تشالنجر" بوجه يخلو من التعبير، وما زالَ يربّت على يد زوجته:" إنّه فقط الفارق بين السعادة والبؤس. يمكنكَ السباحة مع التيار، ويملأ السلام روحك وذهنك. أو يمكنكَ السباحة ضده، فستواجه الكدمات والتعب. هذا الأمر يفوقنا، لذا دعونا نقبلهُ كما هو، ونوقف مناقشته تماماً".

ولكن أنا، محدقًا في السماء الفارغة أناشدُها بيأس، قلتُ ساخطًا:" ماذا سنفعل بحياتنا؟ على سبيل المثال، لم يعد هناك المزيد من الصحف، فمهنتي لم تعد منطقية الآن؟"

- "بما أنّه لا يوجد شيء آخر لملاحقته، ولم يعد هناك المزيد من الحرب في المستقبل، فعملي أيضًا لا معنى له". (قال اللورد جون)

- " لم يعد هناك طلاب، فكذلك عملي لا رجاء منهُ". صاح "سمرلي".

" أنا لديّ زوجي ومنزلي، فلتبارَك السماء؛ لأنّي بقيتُ على قيد الحياة". (قالت السيدة "تشالنجر")

بينما "تشالنجر" قال: "مازالَ لديَّ عملي. لأنَّ العلم لم يمت. فهذه الكارثة ستعرضُ لنا عددًا من المشاكل المهيبة كي نبحث في حلها".

وفتحَ جميع النوافذ، وكنّا نحدق في المناظر الطبيعية الصامتة الهادئة.

"فلنفكّر في الأمر" (أضاف). كانت الساعة حوالي الثالثة من بعد ظهر الأمس، عندما كان العالم مطوقًا بالسمّ إلى حد الاختناق. إنّها الآن التاسعة صباحًا. السؤال هو: في أيَّة ساعة تحررنا؟".

قلتُ:" الهواء كان سيئًا للغاية عند الفجر"

قالت السيدة تشالنجر: "في وقت لاحق من ذلك، حتى الساعة الثامنة شعرتُ بشكل واضح بنفس الاختناق في حلقي، الذي شعرتُ به في البداية".

- "إذن فلنقلْ أنَّ السم اختفى بعد الساعة الثامنة بقليل. لذلك، ولمدة سبع عشرة ساعة، غُمرَ العالم في الأثير السام. سمحَ هذا الفاصل الزمني للبستاني العظيم بتعقيم العفن البشري الذي نما على سطح ثماره. من الممكن أن يكون هذا التعقيم ناقصًا، وأن يكون هناك ناجونَ آخرون على الأرض.

وافقهُ اللورد جون هذه المرة بشدة.

"هذا ما كنتُ أتساءل عنه: لماذا نكونُ الحصى الوحيدة على الشاطئ؟"

قال سمرلي، باقتناع تام: "من العبث أن نفترض أنَّ أي شخص غيرنا يمكن أن يفلتَ من ذلك". "ضعْ في اعتبارك أنَّ السم كان خبيثًا لدرجة أنّه حتى الرجل القوي مثل الثور، وليس لديه عصب في جسده، مثل مالون، بالكاد كان بإمكانه صعود الدرج قبل أن يفقد وعيه، هل من المحتمل أن يقاوم

شخص ما سبع عشرة دقيقة، وليس ساعات؟. ما لم يكن شخصٌ ما قد رأى المستقبل وقام بالاستعداد، مثلما فعل صديقنا تشالنجر".

"هذا، على ما أظنّ، بعيد الاحتمال!"

قال تشالنجر وهو يمدّ لحيته ويمدّ جفنيه: "إنّ الجمع بين الملاحظة والاستدلال والخيال الاستباقي الذي مكّنني من التنبؤ بالخطر، هو أعجوبة نادرًا ما تُرى مرتين ناجحتين في الجيل نفسه".

-إذن، فأنتَ تستنتج أنَّ الجميع ماتوا؟

-" بلا ريب. لنتذكر، مع ذلك، أنَّ السم يعمل من الأسفل إلى الأعلى. وربما كان أقل ضراوة في الطبقات العليا من الغلاف الجوي. إنّه أمر غريب!، نعم، لكنه كذلك؛ ولكنهُ يقدم إحدى تلك الميزات التي ستوفر لنا في المستقبل مجالًا رائعًا للدراسة. بافتراض أننا كنّا نبحث عن ناجين محتملين، فإنَّ المرء سيُدير عينيه - بآمال قصوى في وجود حياة- إلى بعض القرى (التيبتيّة)، أو بعض مزارع جبال الألب، على ارتفاع عدة آلاف من الأمتار فوق مستوى سطح البحر.

-"أجل!" (ابتسمَ اللورد جون). لكنْ يُرجى أيضًا مراعاة أنّه لم يعد هناك أيّة خطوط سكك حديدية أو بواخر متاحة لكَ. كذلك يمكنكَ الحديث عن ناجين على سطح القمر! لكنّي مازلتُ أودّ أن أعرف ما إذا كانت مباراة السمّ تلك قد انتهت، أم أنَّ ذلك وقتٌ مستقطع، ولها عودة أخرى؟!.

رفعَ "سمرلي" قامتهُ قليلاً؛ ليضمّ الأفق كله بناظريه: "إنّ صفحة السماء صافية ونقية للغاية". تمتمَ بصوت يملؤه الارتياب.

"لكنّها بالأمس كانت كذلك. لستُ متأكدًا على الإطلاق أنّنا انتهينا!"

هزَّ "تشالنجر" أكتافهُ بقوة، لا مباليًا لما قالهُ.

ومن ثَّم قال:" في هذه الحالة، فدعونا نعودُ إلى الجبريّة (القَدَرية)، فإذا كان العالم قد مرَّ بهذه التجربة من قبل، وهي فرضية لا يمكن استبعادها على الإطلاق، ومن المؤكد أنّها كانت منذ وقت طويل جداً؛ لذا يمكننا بشكل معقول أن نأملَ أن يمرّ وقت طويل قبل أن يحدث الأمر مرة أخرى".

"كل هذا مقبول!" (ردَّ اللورد جون)، ولكن إذا تعرّضتَ إلى هزّة أرضية، فقد تحدث ثانيةً قبل أن تتعافى من الأولى. على أيّة حال، أظنُّ أننا سنقوم وسنمطُّ سيقاننا، ونتنفس بعض الهواء النقي، بقدر ما نُمنحُ من فرص لذلك. نظرًا لأننا استنفذنا الأوكسجين، فإنَّ ما سنستنشقه في الخارج سيكونُ تمامًا كما في الداخل".

لقد كان غريبًا ذلك الخمول الذي حلَّ بنا، كرد فعل على ثورة مشاعرنا خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية. كان سباتًا جسديًا وعقليًا. شعور عميق أن لاشيء يهمّ، وأنّ كل شيء كان تعبًا أو مجهودًا تدريبياً على حرب لم نخُضها. حتى أنّ تشالنجر استسلمَ لها.

استقرَّ في كرسيه، ورأسه العظيم مدفونٌ بين يديه، أفكارهُ تتداعى. أمسكْنا - أنا واللورد جون- بهِ من ذراعيه، وجعلناه واقفاً على قدميه. وقوبلنا بوهج غاضب وببعض النخر من "الدرواس" الغاضب. ومع ذلك، بمجرد أن وجدنا أنفسنا خارج ملجئنا الضيق، منطلقينَ إلى الجو الرحب للحياة اليومية؛ استعدُنا طاقتنا تدريجياً.

لكن من أين سنبدأ في هذه المقبرة العالمية؟ هل اضطرَّ أحد، منذ أن أصبح العالم عالمًا، أن يجيب على هذا السؤال؟ كنّا نعلم أنّ احتياجاتنا الجسدية ستتم تلبيتها إلى حدّ ما هو ضروري. كان علينا فقط أن نساعد أنفسنا: المؤن الغذائية، النبيذ كلّه، جُلّ كنوز الفنون أصبحت الآن لنا. ولكن ماذا سنفعل؟ بعض المهام البسيطة استطعنا تلبيتها على الفور. لذا نزلنا إلى المطبخ، لتمديد الخدم على أسرتهما. بدوا وكأنّهم لم يعانوا عندما ماتوا: كان أحدهم يجلس على كرسي بجوار الموقد، والآخر يرقد على أرضية المطبخ الخلفية. ثم أحضرنا جثة أوستن المسكين إلى المنزل. كانت عضلاته متيبسة كلوح صلب؛ الصرامة المميتة في كل مرونتها. كان فمه الملتوي يرسم ابتسامة ساخرة صلبة. كانت الأعراض التي ظهرت على جميع الذين ماتوا بسبب التسمم. أينما ذهبنا وجدنا وجوهًا قاتمة مبتسمة، بدا أنّها تسخر من موقفنا المروع، أصحابُها ناقمون على الناجين المسؤولين من عرقهم.

بينما كنّا نشارك في وجبة صغيرة في غرفة الطعام، سارَ اللورد جون بلا كلل صعوداً وهبوطاً. ثم توقّف ليقول لنا:

"اسمعوا! لا أعرفُ ما شعوركم يا أصدقاء، لكن من جانبي، لا يمكنني الجلوس هنا وأنا لا أفعل شيئًا".

رفعَ "تشالنجر" حاجبهُ، وقال:" ربما سيكون لطيفاً منك بما يكفي، أن تقترح علينا ما تعتقدُ أنه يجب القيام به؟"

"فلنذهبْ ونرَ ما حدث"

"هذا ما أوشكتُ أن أقوله في نفسي. ولكن ليس في هذه القرية الريفية الصغيرة. من الشرفة، يمكنكَ أن تعرف كل ما يحدث في هذا المكان"

-"إذن، إلى أين نذهب؟"

-" إلى لندن!"

-"جيد جداً!" (تمتم "سمرلي"). قد تساوي مسافة السير نحو أربعين ميلاً! لكنني أشكّ في أن "تشالنجر" بساقيه القصيرتين المقوّستين، يمكن أن يقدر على ذلك. بالنسبة لي، أنا متأكد تمامًا من مقدرتي!"

كان "تشالنجر" مستاءً للغاية.

"إذا استطعتَ، سيدي، اقصرْ مجال ملاحظاتكَ على خصائصك الشخصية، فستجد أرضية خصبة للتعليقات!"

صاحَ "تشالنجر"

لكنني لم أقصد الإساءة إليكَ عزيزي تشالنجر! (صاحَ صديقنا الذي يفتقر إلى اللباقة). لا يمكن تحميل أيّ شخص مسؤولية جسده. بما أنّ الطبيعة منحتكَ جسماً ممتلئاً وثقيلاً، كيفَ كان يمكنك تجنب وجود أرجل قصيرة مقوسة؟"

غضبَ تشالنجر جدًا بعدما سمعَ جوابه. لم يردّ، لكنَّ جوابه تجلّى على وجهه المحتقن المتشنج. سارعَ اللورد جون إلى التدخل، قبل أن يصبح الخلاف أكثر عنفًا.

-"تتحدثان عن المشي. لكن لماذا المشي؟

-" هل تقترح أن نستقلَّ القطار؟ (سألَ تشالنجر). إنهُ مايزال يرتعد هناك".

-"لا، لكن سيارتكَ، لماذا لا نستخدمها؟"

قال "تشالنجر" ممسدًا على لحيته:" أنا لستُ خبيرًا"

"ومن جهة أخرى، أنتَ على صواب في افتراض أنَّ العقل البشري، الذي يمارس ذكاءَه في أعلى مظاهره عادةً، يجب أن يكون مرنًا بما يكفي للتكيف مع أيّ شيء. فكرتكَ. لورد جون. فكرة ممتازة. سأوصلكم جميعاً إلى لندن".

" لن تقودَ أيَّ شيء مطلقًا". (احتجَّ "سمرلي" بشكل قاطع).

" لا جورج!". (هتفت السيدة "تشالنجر")، لقد حاولتَ القيادة مرة من قبل، وتذكّر كيف حطمت باب المرآب!".

"لقد كان عوزًا قليلاً في التركيز". (وافقها البروفيسور بلطف على كلامها)، ضعْ في اعتباركَ أنَّ الأمر قد تمت تسويتهُ، سأوصلكم جميعًا إلى لندن".

خفَّف اللورد جون وطأة الوضع قائلاً:" ما هي السيارة التي لديك؟"

-عشرون حصاناً.

-حسنًا! لقد قمتُ بقيادة واحدة لسنوات، ولكن أقسمُ لك إنني لم أفكر قط أنّي سأقود بالجنس البشري بأكمله في يوم واحد! هناك متّسع لخمسة أشخاص، حسب ما أتذكر: استعدوا؛ وسأكون في انتظاركم عند الباب بحلول الساعة العاشرة".

وعند الساعة المحددة، وصلنا صوت خرخرة وطقطقة آتيين من الفناء، وخلفَ المقود جلس اللورد جون. أخذتُ موضعي بجانبه. وفي الخلف، حُشرتُ السيدة "تشالنجر"كعازل ضئيل الحجم بين العالِمين الغاضبين.

ثم ضغط اللورد "جون" على المكابح، وسحبَ ذراع السرعة من الدرجة الأولى إلى الثالثة، وانطلقنا في أغرب رحلة قام بها البشر منذ أن وطؤوا الأرض أول مرة. عليكَ أن تتخيل سحر الطبيعة في ذلك اليوم من أغسطس، نسيم الصباح النضر، التوهج الذهبي لشمس الصيف، والسماء الخالية من الغيوم، والأخضر الزاهي في غابات "ساسكس"، والأرجواني الداكن للمنحدرات المكسوة بالخلنج.

بينما يجولُ المرء بنظرهِ في أرجاء المشهد الجمالي متعدد الألوان، ينفي من تفكيرهِ أيَّة شائبة عن الكارثة. ومع ذلك تتسلل إشارة شريرة إلى المشهد لتفسده؛ فكان هناك الصمت المهيب الذي يخيّم على كل شيء.

في الريف، عادةً، تلك الهمهمة الدائمة الطريفة المفعمة بالحياة، تكون ثابتة جدًا وعميقة للغاية لدرجة أنْ يتوقف المرء عن ملاحظتها، كأولئك الذين يعيشون بالقرب من البحر لا يعيرون أمواج البحر المتلاطمة أي اهتمام. زقزقة الطيور، طنين الحشرات، صدى الأصوات البعيدة، خوار الأبقار، نباح الكلاب، هدير القطارات أو حشرجة السيارات: كل هذه الأمور تشكل في أذهاننا نغمة واحدة متواصلة، لا تهدأ، ولا يمكن للأذن أن تدركها كلها.

لقد افتقدناها الآن. كان هذا الصمت القاتل مروعًا. مهيباً ومثيرًا للإعجاب لدرجة أنَّ طنين محرك سيارتنا بدا تدخّلا وقحًا وازدراءً غير لائق لهذا الهدوء الجليل، الذي يبدو أنّه لفَّ بقايا البشرية تحت عباءته.

كان هذا السكون المتجهم، وسُحب الدخان الطولية المرتفعة هنا وهناك المترامية- بطول الريف- من المباني المشتعلة، سبباً في سير قشعريرة في قلوبنا، ونحن نحدق في بانوراما جليلة في "ويبلد".

ثم ها هم القتلى! هذه الوجوه الموسومة -لا تعدّ ولا تحصى - في البداية جعلتنا نرتعب مذعورين. واضح جدًا وقوي جدًا ذلك الأثر الذي طُبع في ذهني، إلى درجة أنني سأتذكر دائمًا ز منحدرين ببطء على التل المؤدي إلى المحطة: مرورًا نزلنا مدبرة المنزل والطفلين. بالحصان العجوز راكعًا مطأطأً رأسه بين قائمتيه، والحوذي مائلاً في مقعده، والشاب في الداخل يتشبث بمقبض الباب في محاولة يائسة للقفز. أبعد قليلاً، وكما في فصل الربيع، كان هناك نصف دزينة من المزارعين متكومين في جانب، أطرافهم متشابكة ببعضها البعض، أعينهم شاخصة خاوية تحدق في وهج الفردوس. كانت تمرّ هذه المشاهد أمام عيني كما لو كانت صورة فوتوغرافية. لكن سرعان ما توقفت أعصابنا عن الاستجابة بفضل الطبيعة الرحيمة. إنّ شدة الرعب تجعل المرء يُسقط من ذاكرته أمور بعينها.

اندمجَ الأفراد في جماعات، الجماعات في حشود، وكذلك اندمجت الحشود في ظاهرة عالمية سرعان ما قبلها المرء باعتبارها تفاصيل قدرية لكل مشهد. فقط على نحو معين، عندما يُلاحظ حادث وحشي أو غرائبي شديد الخصوصية؛ فإنّ العقل المضطرب يستعيد الأهمية الذاتية والإنسانية لأية كارثة.

وفوق كل هذا، هناك ما آلَ إليه الأطفال. ما زلتُ أتذكر كيف ملأتنا رؤيتهم بالاستياء من الظلم الجائر. كادت أن تطفر الدموع من عيوننا، ولكن السيدة "تشالنجر" لم يسعْها سوى النحيب عندما مررنا أمام مدرسة كبيرة: فعلى جانبي الطريق، كانت تنتشر في درب طويل جثث صغيرة لا تعدّ ولا تحصى.

كانوا قد صرفوهم من قبل معلميهم المذعورين، وربما فاجأهم السم في طريقهم للوصول إلى البيت.
وهناك في النوافذ المشرعة على مصاريعها، أعداد هائلة من البشر قد غمرهم السم من شبابيكهم في عقر دارهم.
في "تونبريدج ويلز"، لم يكن هناك بناية واحدة تخلو من جثة محدقة مبتسمة. في لحظاتها الأخيرة، ونقص الهواء في صدور الناس، والحاجة القصوى للأوكسجين -التي تمكنّا وحدنا من إشباعها- جعلتهم يهرعون إلى النوافذ والشرفات. وكذلك الأرصفة كانت ممتلئة بالرجال وبالنساء وبالأطفال - دون قبعاتهم ودون قلنسواتهنّ- الذين هرولوا خارج منازلهم. وسقط كثيرون في منتصف الطريق.
لحسن الحظ، كان اللورد جون يؤكد طوال الطريق أنّه آسٌ في القيادة؛ فلم يكن هناك شيء أصعب من اختيار طريق مناسبة لتجنب الأجساد مترامية الأطراف. فكان يتحتم علينا أن نسير ببطء شديد في القرى والبلدان. وأتذكر أنَّه ذات مرة، كان علينا أن نتوقف في "تونبريدج" لتحريك الجثث التي كانت تعوق سيرنا.
تبرز في ذاكرتي بضع صور دقيقة ومحددة، وسط تلك البانوراما الطويلة من الموت على الطرق السريعة في "ساسكس" و"كنتيش". عند باب نُزلّ في "ساوثبورو"، كانت هناك سيارة كبيرة متلألئة تقف هناك.
بالتأكيد كانت تحمل بعض الأشخاص العائدين من عطلة ممتعة في "برايتون" أو" إيستبورن". كُنَّ ثلاث نساء يرتدين ملابس مبهجة، جميعهنّ جميلات ويافعات، إحداهنّ كانت تحمل كلبًا صغيرًا من نوع "سبانيل" في حضنها؛ كان برفقتهنّ رجل مسنّ ذو مظهر راقٍ، وشاب أرستقراطي- ماتزال نظاراته فوق عينيه، وسيجارته المحترقة حتى نهاية الفلين، بقيت بين أصابع قفّازه.
يبدو أنَّ الموت باغتهم في اللحظة نفسها، إلا أنَّ الرجل العجوز كاد أن يمزّق ياقة قميصه ليفسح للهواء مدخلاً، بينما رحلَ الآخرون وهم نيام. وعلى إحدى جوانب السيارة، سقط نادل عند الدرج وبجواره زجاج محطم. ومن الجانب الآخر، سقط متسوّلان رثّي الملابس، رجل وامرأة، بدا أنَّ الرجل بيده الممددوة يستجدي الصدقات إلى الأبد. وفي لحظة زمنية واحدة، تحوَّلَ الارستقراطي، النادل، المشردون، والكلب والنساء الجميلات إلى جِبلات بروتوبلازمية عفنة.
أتذكّر مشهدًا فريدًا آخر على بعد أميال قليلة من لندن حيثُ،" سيفينوكس" على يسار الطريق وجدنا ديراً كبيراً، أمامه منحدر عشبي طويل. كان المنحدر مغطىً بأطفال راكعين في خشوع وصلاة. وقفتْ أمامهم راهبات متتاليات، وفي الأعلى تقف أمامهم الأم الكبرى.

وعلى عكس الباحثين عن المرح في السيارة، يبدو أنَّ هؤلاء قد تمّ تحذيرهم من الخطر، وماتوا في لمّ شمل بشكل جميل، إذ اجتمعَ المدرسون والطلاب في درس أخير.

مازلتُ مشدوهًا من تلك اللحظات الرهيبة!، أبحثُ عبثًاً عن كلمات للتعبير عن المشاعر التي طغتْ علينا.

ربما من الأفضل والأكثر حكمة، فقط عدم محاولة الإشارة إلى بعض الحقائق. حتى "سمرلي" و"تشالنجر" تحطّما تمامًا. بينما السيدة "تشالنجر" تتنهد وتئنّ من حين لآخر. أما اللورد جون، فقد كان منشغلاً جداً بعجلة القيادة، ومهمتهُ الصعبة في شق طريق لنا بمحاذاة الكارثة، جعلتهُ لا ينزع إلى الكلام، ولم يكن لديه وقت. اقتصرَ على تكرار قول عبارة ــ بلا كلل- لدرجة أنّها علقت في ذهني:

"فعل جميل! ماذا!"

كان متعجباً، وبسبب ذلك التكرار، جعلني أضحك.

يا له من تعليق ليوم الموت هذا! لكنَّ اللورد جون عبّر عنه كلما وقفَ الموت والخراب أمامنا. "عمل جيد، ما هذا!". بينما كنّا نسير من روثرفيلد إلى المحطة. "عمل جميل، أليس كذلك؟"،

بينما سلكنا طريقنا عبر بريّة الموت في شارع" هاي سام" الرئيسي وطريق "كينت" القديم.

هنا فاجأتنا صدمة مذهلة!. من نافذة منزل بسيط ظهرَ منديل يرفرف في نهاية ذراع بشري طويل ونحيل.

لم يسبق أن كان مشهدُ الموت المفاجىء سبباً في توقف قلوبنا عن الخفقان الوحشي، كما فعلَ بنا هذا المؤشر المذهل للحياة.

أوقفَ اللورد جون السيارة على الرصيف.

وفي لحظة، اندفعنا عبر الباب المفتوح إلى المنزل، وصعدنا الدرج إلى الغرفة الأمامية في الطابق الثاني، التي انطلقت منها الإشارة.

كان هناك امرأة عجوز تجلس على كرسي بذراعين بجانب النافذة المفتوحة، وبجوارها وُضعت على كرسي آخر أسطوانة أوكسجين، كانت أصغر من أسطوانتنا، ولكن لها الشكل نفسه الذي أنقذ حياتنا.

عندما تجاوزنا العتبة، وجّهت وجهها النحيف الممدود نحونا، بعيون حادة خلف النظارات.

قالت لنا:" كنتُ قلقة من أنني سأبقى هنا إلى الأبد! لأنني عاجزة ولا أستطيع التحرك".

"حسناً! سيدتي، لقد كنتِ محظوظة للغاية، لأننا مررنا من هنا"

أجابَ "تشالنجر".

قالت: "لديّ سؤال واحد هامّ للغاية لكم أيها السادة"، "أيها السيد: أتوسل إليك أن تكون صريحًا معي. هل يمكنك أن تخبرني ما إذا كان لهذه الأحداث

تأثير على أسعار سوق الأسهم، ولا سيما على أسهم السكك الحديدية البريطانية؟

كنّا قد انفجرنا من الضحك؛ إذا لم يصدمنا القلق المأساوي الذي انتظرتْ ردَّنا عليه. كانت، السيدة "برستون"، هذا هو اسمها، أرملة عجوز يعتمد دخلها بالكامل على ملكية صغيرة من هذا السهم. لقد تميزت حياتها بالصعود والهبوط في سوق الأسهم، ولم تكن قادرة على تكوين مفهوم للوجود لا يتضمن إدراج أسهمها.

عبثاً أشرنا إليها أنَّ جميع الأموال الموجودة في العالم هي من أجل أخذها، ولكن بمجرد أخذها ستكون عديمة الفائدة. وبالطبع رفضَ عقلها عتيق الطراز التأقلم مع تلك الفكرة المستحدثة. وعندها بدأت في البكاء:" كان كل ما أملك! إذا فقدتُ ذلك؛ قد أموت!"

ومع ذلك، استخلصنا وسط رثائها دوافع الحقيقة الغريبة المتمثلة في أنَّ نباتًا قديمًا مثلها، قد نجا من موت الغابة العظيمة بأكملها. فكانت مصابة بالشلل وبالربو.

كان الأوكسجين دواءها لعلاج الربو، وكان لديها زجاجة ممتلئة معها عند وقوع الكارثة. وبطبيعة الحال، بمجرد أن واجهت صعوبة في التنفس، فقد جرَّتْها العادة لأخذ القليل منه. وبأخذها منه عند الحاجة، تمكنتْ من البقاء على قيد الحياة طوال الليل. وبحلول الصباح كانت نائمة، وأيقظها طنين سيارتنا.

وبما أنّه كان من المستحيل اصطحابها معنا، ولأننا رأينا أنَّ لديها كل ضروريات الحياة، فقد وعدناها بالعودة لرؤيتها في غضون يومين على أقصى تقدير. وتركناها، وكانت ماتزال تبكي بمرارة على أموالها الضائعة.

مع اقترابنا من نهر التايمز، ازدادت الاختناقات في الشوارع كثافة، والعقبات صارت أكثر إرباكًا. واجهنا صعوبة كبيرة في شقّ طريقنا عبر جسر لندن. وبالقرب من "ميدلسكس" علقنا من أول الطريق لنهايته في شارة مرور متجمدة، فكان من المستحيل بالنسبة لنا المضيّ قدماً.

وعلى طول الرصيف، بالقرب من الجسر، كان هناك قارب يحترق: كان الهواء عابقاً برقائق السخام، وبرائحة الأخشاب المحترقة التي علقت في أنوفنا.

في مكان ما بالقرب من مجلسي البرلمان، تلبدت سحابة كثيفة من دخان داكن، لكننا لم نتمكن من تحديد المكان المحدد الذي بدأ فيه الحريق.

قال اللورد "جون"، بينما يوقفُ محرك السيارة:" لا أعرف ما رأيكم، لكن أظنّ أنّ الريف أقل قتامة بالنسبة لي من هذه المدينة. الموت في لندن يثيرُ أعصابي. أنا أرى أننا يجب أن نلقي نظرة، ونعود إلى "روثرفيلد".

" حقاً، لا أرى ما يمكن أن نأمله هنا!"

قال البروفيسور "سمرلي" موافقًا.

قال تشالنجر بصوت عالٍ يرتجف بغرابة، وسط الصمت القابع حولنا: " من الصعب علينا أن نتخيل أنّه من بين سبعة ملايين نسمة، لم تنجُ سوى عجوز - ببعض الصدف الغريبة، أو لشغلها هذا المكان بالمصادفة- من هذه الكارثة.

"على افتراض أنّها ليست الوحيدة، وأنَّ هناك ناجين آخرين، جورج، كيفَ يمكننا أن نأمل في اكتشافهم؟ (سألتهُ السيدة "تشالنجر"). ومع ذلك، أعتقد مثلك، لا يمكننا العودة إلى المنزل دون محاولة على الأقل".

ترجّلنا من السيارة، وتركناها عند الرصيف، وبصعوبة شققنا طريقنا إلى شارع الملك "ويليام" على طول الرصيف المزدحم، ثم دلفنا إلى مكتب تأمين كبير عبر بابه المفتوح. كانت بناية عند زاوية الشارع. اخترناهُ لأنه يسمح لنا برؤية جميع الاتجاهات. صعدنا الدرج وسرنا عبر ما يجب أن يكون غرفة اجتماعات، حيث جلس ثمانية رجال كبار السن حول طاولة طويلة في منتصف الغرفة. كانت النافذة العالية مفتوحة، فانطلقنا جميعاً إلى الشرفة. من هناك، يمكن أن نرى شوارع المدينة تتألق في جميع الاتجاهات، بينما أسفلنا، كان الطريق يسقط في السواد، من الرصيف إلى الرصيف، ممتلئاً بأسطح سيارات الأجرة الساكنة.

سيارات وجّهت مقدماتها نحو الضواحي. ربما حاولَ رجال المدينة، الذين أصابهم الذعر، في اللحظة الأخيرة أن يخوضوا المستحيل، وينضموا إلى أسرهم في الضواحي أو الريف.

هنا وهنالك، من بين سيارات الأجرة البسيطة والأكثر تواضعًا، امتدت أغطية السيارات الفخمة النحاسية اللامعة التي تنتمي إلى زمرة من رجال الأعمال الأثرياء، المحاصرين وسط التيار المروع من حركة المرور المتقطعة.

وأمام أعيننا، كانت تركن واحدة لها ذلك الحجم الكبير والمظهر الفاخر للغاية، صاحبها، عجوز سمين، منحني القامة، نصفُ جسده متدلٍّ من النافذة. من خلال رؤيتك ليدهِ الثخينة المتلألئة بالماس- الذي كان ما يزال يحتفظ به- يمكنكَ أن تستنتج أنّه قد أمرَ سائقه ببذل جهد فائق ليشق طريقه وسط الزحام.

وقفت عشرات الحافلات مثل الجُزر الصغيرة في هذا الفيضان: تكوَّم الركاب على الأسطح فوق بعضهم البعض، بدوا وكأنهم لعب الأطفال في دار الحضانة.

وعلى قاعدة عمود الإنارة في منتصف الطريق، وقف شرطي قوي متكئًا على العمود، كانت وقفته طبيعية لدرجة أنّه كان من الصعب إدراك أنّه لم يعد على قيد الحياة، بينما عند قدميه سقط بائع جرائد رثّ الثياب، ترقد جوارهُ كومة جرائد وصحف. وكان هناك عربة توزيع الصحف، وقد علقت في ذلك الزحام، كتبَ عليها بأحرف سوداء على خلفية صفراء: "غضب في نادي اللورد، توقف مباراة المقاطعة".

لابدَّ أنّها كانت الطبعة الأولى، فكان هناك لافتات أخرى لها عناوين: "هل هذه نهاية العالم؟ تحذير من عالِم عظيم؟ هل كان "تشالنجر" على حقّ؟ شائعات مشؤومة".

أشارَ "تشالنجر" إلى اللافتة الأخيرة لزوجته، اللافتة التي كانت تُقحم نفسها كسارية علم وسط الزحام.

كان يمكنني رؤيتهُ منتفخ الصدر يمسّد على لحيته، أثناء نظره إلى تلك العبارات. فكرة أنَّ لندن أثناء احتضارها كانت تردد اسمه وكلماته، كانت تلك الفكرة تثير في رأسه التملق والغرور. كانت مشاعرهُ واضحة، لدرجة أنّها لم تفلت من تعليقات زميلهِ الساخرة:

" تحت الأضواء حتى النهاية، تشالنجر!"

" أجل يبدو كذلك". أجاب ببساطة.

"حسنًا" أضاف، وهو ينظر إلى أسفل، نحو امتداد الشارع المتوهج، تحت وطأة الصمت، مختنقًا بالموت.

"لا أرى حقًا لماذا سنبقى لفترة أطول في لندن. أقترحُ أن نعود على الفور إلى روثرفيلد، ونقدم لبعضنا البعض الاستشارات حول تحديد الأمور الأكثر استفادة للسنوات القادمة".

هناك مشهد أخير، أرى أنّه يحتم عليّ أن أرويهِ عن المدينة الميتة. أردنا إلقاء نظرة داخل كنيسة "سانت ماري" القديمة، القريبة جدًا حيث المكان الذي تنتظر فيه سيارتنا. شققنا طريقنا وسط الأجساد الساجدة على درجات السلم. دفعنا الباب المتأرجح ودخلنا. كان مشهدًا مهيبًا! كانت الكنيسة ممتلئة من بدايتها إلى نهايتها بأناس راكعين في وضعيات مختلفة بين الدعاء والتضرع. وفي اللحظة الأخيرة والرهيبة، واجهَ أولئك فجأة حقيقة الحياة- تينكَ الحقيقة المرعبة التي نتمسك بها حتى في لحظات اتّباعنا الضلال- لقد اندفعوا نحو هذه الكنائس القديمة في المدينة، التي ظلت مهجورة لأجيال تقريباً.

كان هناك رجال ونساء جاثمين راكعين بقدر الإمكان، والكثيرون منهم في احتدامهم مازالوا يحتفظون بقبعاتهم، بينما فوقهم على المنبر، يبدو أنَّ هناكَ شابًا يرتدي ملابس رسمية، كان يخاطبهم دون شك عندما غُمر ومستمعيه بالمصير نفسه. كان يرقد مثل "بانش" في سقيفته، رأسهُ وذراعاه متدليان فوق حافة المنبر. الكنيسة الرمادية المغبرة، صفوف المؤمنين المحتضرين، الصمت والعتمة... يا له من كابوس!

كنّا نتمتمُ بهمسات مكتومة، نمشي على أطراف أصابعنا. وبغتةً راودتني فكرة. في أحد أركان الكنيسة، بالقرب من الباب، كان هناك جُرْن المعمودية، وخلفهُ فجوة عميقة، معلقٌ بها حبال الجرس.

لمَ لا ندقّ الأجراس، ونبعث برسالة يمكن سماعها في جميع أنحاء لندن، على الأقل تجذبُ إلينا أيّ شخصٍ ما يزال على قيد الحياة؟

اتجهتُ نحو الباب راكضًا، وأمسكتُ بحبل "القنب"، فوجئتُ عندما وجدت صعوبة في تحريك الجرس.

مشيتُ عبر الباب، وركضتُ، وتمسكتُ بحبل القنب. لقد اندهشتُ؛ إذ وجدتُ أنّه من الصعب جدًا إصدار الرنين.

اللورد جون، الذي تبعَني، خلع سترته وقال لي:" صديقي العزيز، لديكَ فكرة رائعة! سأساعدكَ، حتى يدوي صوت الجرس".

ولكن حتى معاً لم ننجح. كان على "تشالنجر" و"سمرلي" أن يضيفا وزنهما إلى وزننا، حتى سمعنا أخيرًا صوت اصطكاك وجلبة فوق رؤوسنا، فكان لسان الجرس الهائل يعزف موسيقاه. وقد رددت "لندن" الممزقة رسالتنا الممتلئة بالأخوة والأمل للتواصل مع كل ناج ممكن. لقد دفّأ قلوبنا، ذلك النداء المعدني القوي! وسحبنا بكل قوتنا. ابتعدنا قدميْن بعيدًا عن الأرض، ومن ثم أسقطناه جميعاً. كان "تشالنجر" خائرَ القوى، فقد كان ينحني بكل قوته لتنفيذ تلك المهمة، وبتخبط ويتلوى كضفدع وحشي. وكان يلهث في كل مرة يطلق فيها صوت الجرس. في تلك اللحظة، كان الوقت مناسبًا لأنْ يرسم فنان صورة للفرسان الأربعة، أبطال تلك المغامرة، لهؤلاء الرفاق المقاتلين، الذين واجهوا مخاطر مختلفة بقدر ما كانت غريبة؛ فمصيرهم فرضَ عليهم أن يواجهوا تلك التجربة المتجاوزة لكل تصور!.

عَملنا لمدة نصف ساعة، غمرَ العرق وجوهنا. تتألم أذرعُنا وظهورنا من الإجهاد. ثم خرجنا إلى رواق الكنيسة، وعند البوابة شاهدنا الشارع المزدحم والصامت. لا صوت! لا حركة! لا استجابة لدعوتنا!

"لا فائدة من ذلك؛ لم يبقَ أحد". صحتُ

قالت السيدة تشالنجر: "لا يمكننا فعل شيء أكثر من ذلك". "بحق الله، جورج، دعنا نعود إلى روثرفيلد. ساعة أخرى في هذه المدينة المروعة والصامتة ستدفعني إلى الجنون".

بدون كلمة أخرى، عدنا إلى السيارة. أدارها اللورد جون وجعلها تستدير، وسافرنا إلى الجنوب. بدا لنا أنَّ فصل مغامرتنا انتهى بالنسبة لنا. لم نتوقع أنَّ هناك فصل جديد على وشك أن يبدأ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصحوة الكبرى

لقد وصلتُ الآن إلى الفصل الأخير من هذه المغامرة الاستثنائية، التي تتجاوز أيّة مغامرة أخرى، ليس فقط ما خضناه نحن في حيواتنا البسيطة والشخصية، إنما أيضًا تفوق كل ما خاضهُ الجنس البشري في التاريخ.

كما قلتُ في بداية قصتي، عندما طفقتُ أتتبّع الحقائق، وجدتُ أنّ هذه التجربة تتجاوز مثيلاتها في كونها جبل شاهق تحدّه التلال الواطئة من كل صوب. لقد قُدرَ لجيلنا مصير خاص جدًا منذ أن اختيرَ ليكون شاهدًا على مثل هذا الشيء المعجز!

المستقبل وحده ما سيخبرنا إلى متى سيستمر تأثيرها؟، إلى متى ستحتفظ البشرية بالتواضع والاحترام الذي علّمتها إياهما هذه الصدمة العظيمة؟.

لا بأس في أن أقول، على ما أظنّ، أنّ الأمور لن تعود إلى ما كانت عليه من قبل. لا أحد يستطيع أن يدرك مدى عجزه وجهالته، ولا أن يشعر أنّ هناك يد غير مرئية تمسك به، حتى تُغلق تلك اليد للحظة لسحقهِ.

لقد تدلّى الموت فوق رؤوسنا. ونحنُ نعلم أنّه يمكن أن يعود في أي وقت. حضورهُ الثقيل يجعل حياتنا تدلهمّ. ولكن مَن يستطيع أن ينكر أنّه في ظل ذلك الظلام، ازدادَ الشعور بالواجب، والشعور بالمسؤولية، وحسن تقدير خطورة الحياة وغاياتها، والرغبة المُلحة في التطور والتقدم. ولكن، هل أدخلنا كل هذه الاعتبارات في واقعنا اليومي، لدرجة أنّ مجتمعنا قد يتغير بالكامل؟

ما وراء الطائفية، ما وراء العقائد، أيوجد شيء ما؟.

فلنقلْ أنّه تغييرٌ في وجهات نظرنا، تعديلٌ لمعاييرنا، وفهم لقصورنا وهشاشتنا، ويقيننا الحق: بأنّنا موجودون بدافع التسامح؛ فقد علقت حياتنا من أول ريح قارصة تهبّ من المجهول.

ولكن لأنّ العالم أصبح أكثر جدية، فإنّه لا يعني- في رأيي- أنّه أصبح أكثر حزنًا. من المؤكد أنّنا نتفق على أنّ متعة الحاضر الرصينة والمعتدلة، أعمق وأكثر حكمة من التسارع الصاخب المخبول، إنّها المتعة التي غالبًا ما مرت من أجل المتعة فقط في الأيام الخوالي، (تلك الأوقات القريبة جدًا، والتي لا يمكن تصورها اليوم).

الحياة، الفراغ الذي خضناهُ في زيارات من وإلى بعضنا البعض، في الصيانة الشاقة العبثية للمنازل الكبيرة، في إعداد وجبات معقدة ومضجرة، وجدتْ الآن وقتاً فائضاً وصحة في القراءة، الموسيقى والشمل الرائع لجميع أفراد الأسرة.

لقد جعلتْهم المتع الأكثر حذرًا، والصحة المعتنى بها، أكثر ثراءً من أي وقت مضى، حتى بعد دفع مساهماتهم المتزايدة في الصندوق الاشتراكي لرفع مستوى المعيشة في الجزر البريطانية.

اختلفت الآراء حول الوقت الدقيق لليقظة العظيمة. من المتفق عليه عمومًا أنّه بسبب الفوارق الزمنية، قد تكون هناك أسباب محلية أثرت في عمل السمّ. بالتأكيد، في كل مقاطعة سرى البعث على حدة، فكانت القيامة عمليًا متزامنة. ادّعى العديد من الشهود أنّ ساعة "بيغ بن" كانت تُعلن السادسة وعشر دقائق. بينما الجمعية الملكية لعلماء الفلك حددت الساعة بأنها كانت السادسة واثنتي عشرة دقيقة بتوقيت "غرينتش". من ناحية أخرى، لاحظ "ليرد جونسون" مراقب من "شرق أنجليا" واسع المعرفة، أنّها كانت في الدقيقة السادسة والعشرين من الساعة نفسها. سُجّل في "هبريدس" في الساعة السابعة. في حالتنا، لا يمكن أن يكون هناك شك، حيث كنتُ جالسًا في مكتب "تشالنجر"، وأمامي ساعة "الكرونوميتر"، وكانت الساعة السادسة والربع.

لقد أثقلَ روحي اكتئاب لايُقاس. أثقلتْ روحي الصور المتراكمة لجميع المشاهد المروعة التي رأيناها في رحلتنا الصباحية بشكل مهيب. نظرًا لصحتي الزائدة كحيوان صغير، ولطاقتي الجسدية المهولة، كانت صحتي الذهنية في أضعف حالتها!

كان لديَّ حسّ أيرلندي لاستخلاص بريق الدعابات في أيّ موقف بائس. لكن لمرة واحدة كنتُ متعباً ومثبط العزيمة.

كان الآخرون في الطابق السفلي، يخططون للمستقبل. كنتُ قد ذهبتُ صوب النافذة المفتوحة، أرحتُ ذقني على يدي، ورحتُ أفكر في بؤس موقفنا.

هل يمكننا الاستمرار في العيش؟ على الأقل، كان هذا السؤال ما كنتُ أطرحه على نفسي. أكان باستطاعتنا العيش في عالم منتهٍ؟ مثلما في الفيزياء، يجذب الجسم الأكبر الجسم الأصغر. ألن نتعرض لقوة الجذب التي لا يمكن التغلب عليها، لهذه الإنسانية الهائلة التي قفزت إلى المجهول؟

كيف ستؤولُ حياتنا إلى نهايتها؟ أعنْ طريق عودة شرسة للسمّ؟ أم أنَّ الأرض ستصبح غير صالحة للسكن بسبب تعفّن الأجساد؟ وكنتُ قلقًا من أن ينتهي وضعنا الرهيب بفقدنا صوابنا... لذا سنصبحُ فريقاً من المجانين في عالم ميت؟

كان عقلي يبحث هذا الاحتمال المؤسف، عندما جُعلتُ أديرُ رأسي - في إثر ضجيج طفيف- نحوَ الطريق أسفل ناظريَّ! كان حصان العربة القديمة يقترب من التل، وعلى الفور، أدركتُ أنَّ الطيور بدأت تغرد مرة أخرى، وأنَّ شخصًا ما كان يسعل في الفناء، وبدا أنَّ المشهد بأكمله يتحرك.

لكنّني أتذكر جيدًا أنَّ ذلك الحصان العجوز، السخيف، الهزيل، البشع، هو أول ما استحوذَ على انتباهي. وببطء يئزُّ ويتجاوزُ المنحدر. ثم اتجهتْ عيني إلى السائق الذي كان جالسًا في مقعده، إلى الشاب الذي كان يميلُ من الباب؛ ليأمر باتجاهٍ يسلكه: بلا شك وبقوة عودوا إلى الحياة!

عودوا إلى الحياة حقًا! هل عانيتُ حينئذٍ من الهلوسة؟ هل يمكن أن تكون قصة الحزام المسموم الذي أحاط بالأرض مجرد كابوس؟ تحيّرتُ لبضع لحظات، وكنتُ على استعداد لتصديق ذلك. ثم نظرتُ إلى يدي، ماتزالُ هناك الخدوش والخربشات التي أحدثتُها بيدي عندما قرعتُ أجراس كنيسة سانت ماري. لم أكنْ أحلم.

وعلى كلٍ، بُعثَ العالم من جديد: كان مدّ الحياة هو الذي غمر الكوكب هذه المرة. جلتُ ببصري في الريف، في كل صوب، بدأ كل شيء من جديد، استؤنفَ كل شيء من حيث المكان الذي قطعَ فيه كل شيء. لاعبو الغولف، مثلاً: هل سيستأنفون جولتهم حقًا؟ نعم، فكان أحدهم يجهز الكتل الرملية. ويستأنف الآخرون، على الجانب الأخضر، تصويباتهم نحو الثقوب.

أما المزارعون فكانوا يسيرون بتؤدة نحو الحقول. كانت مربية الأطفال قد رفعت الطفل على أحد ذراعيها، وبالذراع الأخرى كانت تدفع عربة الطفل إلى أعلى التل. أمسكَ كلٌّ منهم بخيط حياته متهورًا من حيث أن أسقطهُ من قبل!

ركضتُ على الدرج، لكنَّ باب الرواق كان مفتوحًا، وفي الفناء سمعتُ أصوات رفاقي، تعلوها الدهشة والتهاني... آه! ما أروع تلك المصافحات التي تبادلناها وهذا الضحك! حتى السيدة "تشالنجر"، في ثورة مشاعرها، قبّلتنا جميعًا قبل أن تلتفت وتسقط بين ذراعي زوجها.

"لكن مهلاً، لم يكونوا نيامًا!" (صرخ اللورد "جون").

بحقّ الجحيم، تشالنجر! هل تظنُّ أنَّ هؤلاء الناس كانوا ينامون وأعينهم مفتوحة، وأطرافهم مترامية جامدة، وتلك الابتسامة المروعة على وجوههم؟

أجابَ تشالنجر:" لابدَّ أنهم أصيبوا بإغماءة تخشّبية، هذه ظاهرة نادرة إلى حدّ ما، غالبًا ما كان يتم الخلط بينها وبين الموت في الماضي. عندما يخضع المرء لسطوتها، تنخفض درجة حرارته، ويختفي التنفس، ويصبح النبض غير محسوس... في الواقع، إنّه الموت، مع اختلاف أنّه موت مؤقت. يصيبُ حتى العقل الأكثر علمًا".

وهنا أغلقَ عينيه وابتسم.

" كان سيواجهُ صعوبة في تصور انفجار عالمي بهذا الشكل".

قال "سمرلي" ملاحظاً:" يمكنك أنْ تسمّيه إغماءً تخشبيًاً وحسب. لكن باختصار إنّه اسم، لا أكثر! ولا نعرف أكثر عن آثاره أكثر من نوع السمّ الذي تسبَّب فيه. فكل ما يمكننا قوله هو:

" لقد تسبَّب الأثير الفاسد في موت مؤقت".

كان أوستن جالسًا متكومًا على درج السيارة. سعالهُ الذي سمعتهُ من الأعلى كان واضحاً. كانَ يمسك رأسه في صمت، لكنهُ الآن يتمتمُ في نفسه، ويديرُ عينيه فوق السيارة.

"شاب أحمق!. (هدرَ). لا يمكنهُ ترك الأشياء دون لمسها".

"ما الأمر يا أوستن؟"

" الزيت يقطّر يا سيدي. استمتعَ شخص ما بالسيارة. أعتقدُ أنّه ابن البستاني يا سيدي".

بدت على اللورد جون ملامح الشعور بالذنب.

"لا أعرف ما الخطأ؟" (تابعَ أوستن، وهو يكابد ليقف على قدميه)، أتذكّر شعوري بشيء غريب عندما كنتُ أغسل السيارة. أعتقدُ أني وقعت على درجة السيارة. لكنّي أقسمُ إنّي لم أترك صنابير الزيت هذه".

سُردتْ لأوستن نبذة مختصرة عن الأحداث، وبوجه تعلوه علامات الذهول، علمَ أوستن بما حدثَ له وللعالم. فُسِّرَ له سرّ تقطير الزيت. استمعَ إلينا بسخط وبازدراء واضحين للهاوي الذي قادَ سيارته، وباهتمام بالغ بكلماتنا القليلة، كان يُنصت إلى قصة رحلتنا إلى المدينة النائمة. أستطيع تذكّر تعليقهُ عندما انتهت القصة:

" إذاً كنتَ بالقرب من بنك إنجلترا، سيدي؟"

"نعم، أوستن"

" وكان هناك كل تلك الملايين في الداخل، والجميع نائمون؟"

"كانَ كذلك، أوستن"!.

ولم أكن هناك! (تذمَّر شاكياً، قبل أن يستدير لالتقاط خرطوم الحديقة).

صرَّت العجلات على الحصى. توقفت العربة القديمة خارج باب "تشالنجر". رأيتُ الراكب الشاب يخرج. بعد لحظة، أحضرت الخادمة التي بدت في حيرة من أمرها، كما لو كانت قد انتُزعت من أعماق نومها، بطاقة عمل على صينية. عندما قرأها، صدرتْ عنه شخرة شديدة. وبدتْ لحيته السوداء الكثة تلوح فوق وجهه.

- صحفي! زأرَ. ثم اتسّعت ابتسامة ازدراء ملء فمه. " بعد كل شيء، من الطبيعي أن يكون العالم بأسره في عجلة من أمره؛ لمعرفة ما أفكرّ به حول مثل هذا الحدث!".

قال "سمرلي":" بالتأكيد هذا ليس هدف رحلته، لأنَّ مراسلكَ كان على الطريق في العربة قبل أن تبدأ الكارثة".

التقطتُ البطاقة وقرأتُ: جيمس باكستر، مراسل لندن لصحيفة "نيويورك مونيتور".

"هل ستقابلهُ؟" سألتُ.

-"لستُ أنا!"

-أوه جورج! يجب أن تكون أكثر اجتماعية، ولطيفاً! هل من الممكن أنكَ لم تتعلم شيئًا من هذه المغامرة؟
-"لا.. لا!" أجابَ لتوّه، وهو يهزّ برأسه الذي كان ضخماً، بقدر ما كان عنيدًا.
ثم انفجرَ صائحاً: " إنّهم سلالة سامّة؟ ها؟ مالون؟ أسوأ نبتة في الحضارة الحديثة! أداة دجّال، عقبة أمام كل تقدّم البشرية! متى قال الصحفيون كلمة طيّبة عني؟"
- وأنت؟ متى تحدثتَ عنهم بإنصاف؟ (أجبتهُ).
دعنا نرَ، سيدي، إنّه شخص غريب جاء لرؤيتك. أنا متأكد من أنكَ لن تخيّب ظنّه.
- حسناً، حسناً! تعالَ معي، وتحدّث نيابة عنّي. ومقدمًا، أنا أحتجّ على مثل هذا التدخل العدواني في خصوصيتي.
هدرَ، وزمجرَ، ومن ثمّ تبعني مثل "الدرواس" الغاضب.
كان الشاب الأمريكي متأنقًا. أخرجَ دفتر ملاحظاته، وقفزَ بكلتا قدميه إلى الموضوع.
" لقد جئتُ يا سيدي؛ لأنَّ شعبنا في الولايات المتحدة يريد أن يعرف عن الخطر الذي حذرتَ منه، وحسبَ رأيك، يهدد العالم بشكل كبير.
أجابَ "تشالنجر" بفظاظة":" لا أعرفُ أيَّ خطر يهدد العالم بشكل كبير".
حدَّق به المراسل مندهشًا!.
"أعني، سيدي، احتمال أنَّ العالم قد يكون محاطًاً بحزام من الأثير المسموم".
"لا أخشى الآن أيَّ خطر من هذا النوع".
لقد ازدادَ ارتباك الصحفي بشكل واضح.
-أنت بروفيسور "تشالنجر"، أليس كذلك؟
-أجل سيدي. هذا اسمي.
- حسنًا، لذا لا أستطيعُ أن أفهم كيف يمكنكَ القول: إنَّ مثل هذا الخطر غير موجود. هل أذكّرك برسالتكَ إلى التايمز، والتي ظهرت تحت توقعيكَ في طبعة هذا الصباح؟
وفي المقابل، بدا "تشالنجر"متفاجئًا.
-"هذا الصباح؟ لم تصدر صحيفة التايمز في لندن هذا الصباح".
- بالتأكيد، هذا صحيح سيدي!. (قال الأمريكي بنبرة احتجاج خفيف)، أنتَ تقرُّ أنَّ التايمز هي صحيفة يومية في لندن. إليكم الرسالة التي أنا أتكلّم بصددها.
وهو يسحب نسخة من جيبه، ضحكَ "تشالنجر" أشارَ فرحًا، وفركَ يديه معًا.
بدأتُ أفهم. إذن، هل قرأتَ هذه الرسالة هذا الصباح؟
- نعم يا سيدي.

- وعلى الفور أتيتَ لإجراء مقابلة معي؟
- نعم ياسيدي.
- هل لاحظتَ أيَّ شيء غير طبيعي أثناءَ رحلتكَ إلى هنا؟
- حسناً! سيدي، لأكونَ صريحًا، بدا أبناءُ بلدتكَ أكثر حيوية وإنسانية من المعتاد. نزلَ حامل الأمتعة من العربة ليخبرَني بقصة طريفة: وفي هذا البلد كانت تجربة جديدة بالنسبة لي حقًا.
- أي شيء آخر؟
- حسناً، لا يا سيدي، لا شيءَ لا أتذكرهُ على أيّة حال.
- متى غادرتَ محطة فيكتوريا؟
ابتسمَ الأمريكي.
- جئتُ لمقابلتكَ، بروفيسور، لكنْ لديَّ انطباع أنكَ تقلب الأدوار.
- تخيّل أنَّ هذا يثير اهتمامي. هل تتذكرُ متى غادرت؟
- بالتأكيد. كانت الثانية عشرة والنصف.
- ووصلت؟
- في الثانية والربع.
- وأخذتَ سيارة أجرة؟
- أجل، هذا ما حدث.
- إلى أيِّ مدى تتوقع أن تستغرق العربة ــ كمسافة ــ بين هنا والمحطة؟.
- ثلاث كيلومترات على الأقل.
- كم من الوقت في رأيكَ، يستغرق قطع هذه الكيلو مترات الثلاثة؟
- حسناً! ربما نصف ساعة، مع ذلك الحصان المصاب بالربو.
- إذن، يجب أن تكون الساعة الآن الثالثة؟
- أجل، ربّما أكثر قليلاً.
- انظرْ إلى ساعتك.
أذعنَ الأمريكي، وعلتْ وجههُ دهشة فزعة.
"قلْ!" (صاحَ): " هذا الحصان حطّم كل الأرقام القياسية بالتأكيد. الشمس منخفضة جداً، الآن بعد أن أفكّر في ذلك... أوه! شيءٌ ما يحدث هنا لا أفهمه!
- ألا تتذكر أيَّة حادثة أثناء صعودكَ التل؟
- اسمعْ، يبدو أنّني أذكر أنّه في مرحلة ما، كانت لديّ رغبة قوية في النوم... وبعد ذلك، تذكرتُ. كنتُ أودّ أن أقول شيئاً للسائق، ولكنّه لم يستجب لي، ظننتُ أنّ ذلك بفعل الحرارة، وللحظة شعرتُ بالدوار... هذا كل شيء.
- الشيء نفسهُ حدثَ للبشرية كلّها!. (قال لي "تشالنجر").
للحظة شعروا جميعاً بالدوار. لم يدرك أحد حتى الآن ما حدث. وجميعهم سيستأنفون عملهم الذي انقطعَ، مثل: أوستن يلتقط أنبوب

خرطوم الحديقة، لاعبو الغولف سيعودون إلى اللعب. مديركَ، مالون، سيواصل تجهيز صحيفته، وسيندهش يومًا ما عندما يكتشف أنَّ هناك قضية مفقودة.

نعم يا صديقي الشاب. (أضافَ للمراسل الأمريكي، بمزاج مفاجئ من اللباقة المسلية): "قد يثيرُ اهتمامكَ معرفة أنّ العالم قد سبح بأمان عبر التيار السام الذي يدور مثل تيار الخليج عبر محيط الأثير. كما يُرجى ملاحظة أنّه لراحتكَ في المستقبل ليس اليوم الجمعة، السابع العشرون من أغسطس. إنّما يومُ السبت، الثامن والعشرون من أغسطس، وأنكَ مكثتَ فاقداً للوعي في سيارة الأجرة الخاصة بكَ، لمدة ثمانٍ وعشرين ساعة على طريق "روثرفيلد".

وهنا، يمكنني وضع حدّ لهذه القصة. ربما أدركتَ من قراءة المقال أنّه ليس سوى نسخة كاملة وأكثر تفصيلاً من التقرير الذي نُشرَ في يوم الاثنين التالي في الجريدة اليومية، (التقرير الذي كان يُنظر إليه على أنّه أكبر تقرير صحفي حصري على الإطلاق، والذي بيعَت بسببهِ ثلاثة ملايين ونصف نسخة من الصحيفة).

إنهُ موجود الآن في إطار على جدار مكتبي، تقولُ تلك العناوين المهيبة كل شيء:

العالم في غيبوبة لمدة ثمانٍ وعشرين ساعة

تجربة غير مسبوقة

تشالنجر كان على حق

لقد نجا مراسلنا

قصتهُ المثيرة عن غرفة الأوكسجين

نزهة غريبة

لندن تحت الموت

العثور على الصفحة المفقودة

حرائق خطيرة- وفيّات كثيرة

هل من المحتمل أن تتكرر هذه الظاهرة؟

تحتَ هذه الزمرة المجيدة، امتدت تسعة أعمدة ونصف من السرد: التقرير الفريد والأول والأخير عن تاريخ الكوكب، (على الأقل حيثُ يمكن لمراقب واحد أن يرويها) خلال أطول يوم من وجوده.

وفي مقال علمي مشترك، ناقشَ "تشالنجر" و"سمرلي" الأمر على المستوى العلمي.

ولكنْ بالنسبة لي، لم يكن الأمر كذلك، فقد عنيتُ بالتقارير. بالتأكيد أمكنني الغناء بأغنية "نونك ديميتس"

لأنَّ مهنتي كصحفي، لن تُقابل بمثل هذا التقديس بعد ذلك!

لكن اسمحوا لي ألّا أنهي بعناوين مثيرة أو بانتصار شخصي. اسمحوا لي أن أقتبسَ من المقاطع الختامية الرنانة للمقال الافتتاحي الرائع، الذي نشرتهُ أكبر صحيفة يومية في العالم
(مقال افتتاحي يجبُ على كل رجل كفْء أن يتأمله)
وقالت التايمز:" هناك حقيقة بديهية قديمة، تؤكد أنَّ جنسنا البشري شعبٌ ضعيف في مواجهة القوى الكامنة اللانهائية التي تحيط بنا. من مهد الأنبياء إلى الفلاسفة المعاصرين، كانت تصلنا الرسالة ذاتها، لتحذرنا، عدة مرات. ولكن مثل كل الحقائق التي تتكرر كثيرًا، فقدتْ مع الوقت أهميتها وقوّتها. لقد تطلبَ الأمر درسًا أو تجربة مؤثرة لإعادتها إلى الحياة. لقد خرجنا للتو من محنة مفيدة لكنّها مروعة. ماتزالُ أذهاننا معلقة على جُدر الدهشة من مفاجأتها، لكنَّ أرواحنا تخففتْ إثرَ الاعتراف بحدودنا وضعفنا. دفعَ العالم ثمنًا فادحَ التكلفة للتعلم، نحنُ لا نعرف بعد حجم الكارثة. لكنَّ تدمير نيويورك، أورليانز، برايتون بنيرانها هو بحد ذاته أحد أفدح المآسي في تاريخ البشرية. عندما يتمّ الانتهاء من سرد حوادث السكك الحديدية وكوارث الشحن البحري، فإنَّ قراءتها ستتسبّب في الفزع العام. ومع ذلك، في معظم الحالات، تمكَّن سائقو القطارات ومهندسو البواخر من تخفيف قوة محركاتهم قبل الاستسلام للسم.
لكن في الوقت الحالي، سنتركُ جانبًا اعتبارات الضرر المادي، وهو أمرٌ هامّ للغاية من حيث حياة الإنسان نفسه، والممتلكات على حد سواء.
الوقتُ سيسمح لهم بمسحها. ما لا ينبغي نسيانهُ، من ناحية أخرى، ما يجبُ أن يستحوذ على خيالنا باستمرار، وهو الكشف عن احتمالات الكون، وإثبات أنَّ المسار الضيق الذي يتمّ تعيين وجودنا المادي عليه، تحدُّه هاوية لا يمكن سبر غورها. في أصل عاطفتنا الحالية، تمتزجُ أحاسيس الإجلال بالتواضع. أتمنّى أن يعمل كلاهماَ كأساس لمعبد أكثر جدارة، ونأمل أن يبني عرقًا أكثر استنارة، وأن يكون هناك المزيد من الاحترام لمصدر الإلهام".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمت بحمد الله وتوفيقه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

..

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

"الخطوط الوهمية"
مدّ الموت
الغرق
العَالَم المُحتضِر
الصحوة الكبرى